مشاهير قادة العالم



بطرس الأكبر

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



بطرس الأكبر

تأليف
بسام العسلي

الطبـــــعة الأولـــى
١٤٠٠ هـ. = ١٩٨٠ م.



بطرس الأكبر

المقـــدمـــة

يقول المثل العامي- العربي- : «لكل زمان دولة ورجال». وهكذا فقد عرف القرن السابع عشر مجموعة من الرجال، قلما يجود الزمان بأمثالهم، وكان بطرس الأكبر، قيصر روسيا، هو أول رجال هذا القرن (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥) وعاصره في فرنسا الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) ثم ظهر في بروسيا، فريدريك الكبير (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) ومع اقتراب القرن من نهايته ظهرت شخصيتان تجاوزت شهرتهما حدود الزمان والمكان للحقبة التي عاشا بها، وهما: جورج واشنطن (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) ونابليون بونابرت ١٧٦٩- ١٨٢١) كما أنجبت روسيا على مستوى العبقرية العسكرية قائدين عظيمين هما: كوتوزوف ـ قاهر نابليون- (١٧٤٥ ـ ١٨١٣) وسوفوروف (١٧٢٩- ١٨٠٠). ولم يكن هؤلاء الرجال هم كل من جاد به هذا القرن، وان كانت شهرتهم الرائعة قد حجبت عن الظهور كثيراً من الشموس المتألقة.

وكان القرن السابع عشر، قرن التحولات الكبرى، والصراعات المريرة القاسية، وصحيح أنه من المحال مقارنة تلك الصراعات بما حدث بعدئذٍ من حروب عالمية- كتلك التي عرفها القرن العشرين- إلا أنه من المحال أيضاً فصل العوامل التي أدت الى تلك التحولات والتفجرات عن تلك العوامل التي أدت الى الحروب العالمية، ومن هنا تبرز أهمية التعرض لتلك الحقبة التاريخية من خلال ما قامت به الشخصيات التاريخية في القرن السابع عشر- من اعمال ومنجزات- تركت ظلالها على صفحة الزمن مديدة لأكثر من أربعة قرون.

وفي مجال التحولات، يمكن الاشارة الى ظاهرتين مميزتين ومثيرتين في آن واحد:

الظاهرة الاولى هي ارتباط الصراعات بتشكل الدول قومياً ووطنياً ودينياً. فقد ارتبط اسم بطرس الأكبر ببداية ظهور روسيا كدولة عظمى وارتبط اسم فريدريك ببداية ظهور بروسيا، كما ارتبط اسم نابليون بالثورة الافرنسية، وعظمة فرنسا، وكذلك الأمر بالنسبة لجورج واشنطن والثورة الأمريكية الخ . . . وتبع ذلك بالضرورة بداية الانهيار لدولة- أو دول- عاشت طويلاً عصر قوتها (كالسويد ودول شمال اوروبا والامبراطورية العثمانية). فكان الصراع - من وجهة هذا المنظور التاريخي- صراعاً حضارياً ومصيرياً بين دول احتلت مكانتها الرائعة تحت الشمس، وبين دول اخذت في شق طريقها نحو شمس المستقبل. وكانت القوة بكل ابعادها هي الحكم في هذا الصراع المصيري، وانتصرت في النهاية الدول التي توافرت لها مصادر القوة الحقيقية بقدر اكبر- : القوة البشرية، والقوة الاقتصادية، والمساحة- أو الموقع- الجيواستراتيجي- الخ . . .

أما الظاهرة الثانية، المميزةوالمثيرة، فهي تصدر شخصيات شعبية- اذا صح التعبير- لقيادة التحولات الكبرى والحاسمة. فأسماء نابليون وجورج واشنطن برهان اكيد على ذلك، كما أن القياصرة والاباطرة والملوك لم يكونوا بدورهم، وعلى الرغم من الأرث التقليدي الذي حملهم الى موقع قيادتهم ومسؤوليتهم، اكثر من شخصيات شعبية، التحمت بالشعب، ومارست دورها من خلال الشعب، وهذا ما تبرزه وتؤكده سيرة اولئك القادة من امثال بطرس الكبير، وفريدريك الكبير اللذين لم يتمكنا من تحقيق منجزاتهما إلا بفضل إيمانهما بشعبيهما، وبما يتوافر لهما من قدرات مبدعة وامكانات رائعة.

لقد بدأ بطرس الكبير حياته وسط صراعات مريرة، فكان عامل الاستجابة لديه اكبر من عامل التحدي وأقوى، فأمكن له بذلك الانتصار على التحديات، وأخذ في تطوير دوائر الصراع من محيط القصر الى محيط الدولة والى الافق الدولي، ورافق كل تطوير ظهور تحديات اكبر قابلها بطرس باستجابات أعظم، فكان في ذلك انتصاره على ذاته أولاً، وعلى محيطه ووسطه ثانياً، وعلى التحديات الخارجية ثالثاً، فوضع من خلال ذلك كله اساس البناء الذي لم يلبث أن تطور لمصلحة روسيا كلها، ولفائدة الشعب الروسي بمجموعه.

وتبقى حياة بطرس، نموذجاً لسيرة الارادة الذاتية، وقصة للعمل الصادق المخلص، فهو لم يعمر كثيراً، شأنه في ذلك شأن الكثير من عظماء الرجال، اذ مات ولما يتجاوز الثالثة والخمسين من عمره. غير أنه كان له في كل يوم من أيام حياته مأثرة عظمى، وانجاز رائع، سارت على اثره (عائلة رومانوف) وحذت حذوه، فأمكن لها بذلك التربع على عرش روسيا لمدة تزيد على الثلاثة قرون.

لم يكن بطرس الاكبر، على كل حال، نسيجاً وحده، لقد ورث عن جده (ايفان الرهيب) الكثير من الخصائص والصفات التي أورثها لمن بعده (من أمثال نيقولا الاول والثاني الخ)... . واذا كان لآل ستيوارت دور في انكلترا والبوربونيون دورهم في أسبانيا وآل هوهنزلرن دورهم في ألمانيا فقد كان لعائلة رومانوف دورها في روسيا وكان بطرس الاكبر نموذجاً لهذا الدور.

لقد عاش بطرس الاكبر حياته لأمته، وعاشت امته معه حياة بناء المستقبل، ومن خلال التفاعل المستمر بين حياة الفرد والأمة نسجت قصة بطرس الاكبر فكان نموذجاً لقصة (الأمة في رجل والرجل في أمة).

بسـام العسـلي

الوجيز في حياة بطرس الأكبر

١٦٧٢	ولادة بطرس في موسكو عاصمةالقياصرة.
١٦٨٢	المناداة ببطرس قيصراً على روسيا.
١٦٨٩	زواج بطرس من ابنة أحد أفراد رعيته.
١٦٩٧	رحلة بطرس متخفياً الى اوروبا.
١٧٠٣	بناء مدينة (بطرسبورغ) لتكون عاصمة للدولة على نهر النيغا.
١٧٠٩	قيادة بطرس لجيوشه ضد (شارل) ملك السويد، وانتصاره.
٧١٢	زواج بطرس من كاترين- الزواج الثاني-
١٧١٢	هزيمة بطرس وجيوشه على ايدي الاتراك العثمانيين.
١٧٢١	استيلاء بطرس على ليفونيا وإشسونيا وانغريا وقسماً من فنلندا وكارليا.
١٧٢٣	وصية بطرس بولاية العهد، وحكم روسيا من بعده.
١٧٢٥	وفاة بطرس. وولاية كاترين على حكم روسيا.

الحكم في روسيا القيصرية حتى بطرس الأكبر

عاشت روسيا امارات ممزقة طوال الفترة من سنة (٨٦٢ - ١٤٢٥) وكان من أبرز الامارات في هذه الفترة: كييف وفلاديمير وموسكو. واستطاعت موسكو بعد ذلك توحيد الامارات الروسية، وبناء الدولة، وتوجيه الجهد للتوسع. واعتباراً من هذا التاريخ أصبح حاكم روسيا يحمل اسم القيصر. وقد حكم من هؤلاء القياصرة على التوالي:

تاريخ بدء حكم القيصر	القيصر
١٤٦٢	ايفان الثالث.
١٥٠٥	فاسيلي الثالث.
١٥٣٣	ايفان الرابع (الهائل-أو الرهيب)
١٥٨٤	فيودور.
١٥٩٨	بوريس غودنوف.
١٦٠٥	ديمتري (الكذاب)
١٦٠٥	فاسيلي ساشوسكي.
١٦١٣	ميخائيل رومانوف.
١٦٤٥	الكسي.
١٦٥٦	فيودور.
١٦٨٢	بطرس الأكبر.

«كان بطرس الاول رجلاً عظيماً حقاً»

انجلز

«ان بطرس الاول هو القائد الأول في عصره»

سوفوروف

الفصـــل الأول

١ـ التطور التاريخي.
٢ـ بطرس على طريق البداية الشاقة.
٣ـ بواكير النصر في (آزوف)
٤ـ الصراع مع السويد (حرب الشمال)
آـ المرحلة الأولى من حرب الشمال (١٧٠٠ـ ١٧٠٦).
بـ معركة بولتافا (١٧٠٩).
٥ـ بطرس الاكبر و (بناء الدولة).
٦ـ هزيمة بطرس على ضفاف نهر بروث.
٧ـ استئناف الصراع على مسرح اوروبا.
٨ـ زيارة بطرس لباريس ونتائجها.
٩ـ الصفحة الاخيرة في حياة قيصر.
١٠ـ كاترين على طريق القيصر بطرس.

١ـ التطور التاريخي.

يشكل الاتحاد السوفييتي اليوم، ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته، قطراً من اكبر اقطار العالم، حيث تمتد مساحته الجغرافية (٢٢,٤٠٠,٠٠٠) كيلومتراً مربعاً، ليشغل نصف أوروبا وثلث آسيا وليمتد عبر قارتين ويغطي أكثر من سدس مساحة العالم. وتفصل جبال أورال، روسيا الاوروبية عن روسيا الآسيوية(*) وتتكون روسيا من سهول واسعة، لا يرتفع بعضها كثيراً عن سطح البحر، وتحيط البحار بأكثر من ثلثي مساحة روسيا، ولا تحيط بها كلها. وتختلف كثافة السكان بطبيعة الحال من أقليم إلى أقليم. ففي اقليم موسكو يعيش اكثر من (٢٦٠) نسمة في الميل المربع، بينما لا يعيش في بعض الأقاليم القطبية أكثر من شخصين في الميل المربع، ومن ثم فمتوسط كثافة السكان منخفض جداً. ونتيجة لهذا الامتداد الجغرافي، فقد ضم الاتحاد السوفييتي مناطق ذات اقليم مناخي متباين، وعلى سبيل المثال، فمنطقة (رأس

(*) يمكن على سبيل المقارنة استقراء المعطيات التالية (حسب موازين القوى عام ١٩٨٠،)

البلد	المساحةبالكيلومتر المربع	السكان	كثافةالسكان(كم٢)
الاتحاد السوفياتي	٢٢,٤٠٠,٠٠٠	٢٦١,٣٠٠,٠٠٠	١١
الصين	٩.٥٩٧,٠٠٠	٩٥٨,٠٠٠,٠٠٠	٩٠
الهند	٣,٢٦٧,٠٠٠	٦٥٢,٨٢٠,٠٠٠	٢١٠
الولايات المتحدة	٩,٢٠١,٦٢٦	٢٢٠,٣٠٠,٠٠٠	٢٥
بريطانيا	٢٤٠,٧٧٧	٥٥,٩٦٠,٠٠٠	٢٣٠

تشيليوسكين) يقع شمالي الدائرة القطبية الشمالية، وتهب عليه الرياح الثلجية حتى في الصيف حاملة معها الى الساحل كميات ضخمة من الثلج، في حين يشكل اقليم (التركمان) اكثر اقاليم الاتحاد السوفييتي نحو الجنوب- إذ يقع على نفس خط عرض تونس، ولهذا تنمو فيه أشجار النخيل. أما (شبه جزيرة القرم) فتتمتع بأحسن مناخ في الاتحاد السوفييتي، وتنمو بها أشجار اللوز.وبها المصايف الجميلة.

وهكذا، فمناخ الاتحاد السوفييتي، بصورة عامة، هو مناخ قاري مميز بشتاء طويل شديد البرودة وصيف حار، مع انتقال سريع بين فصلي الصيف والشتاء (فلا وجود لفصلي الخريف والربيع). وللاتحاد السوفييتي سواحل تمتد آلاف الأميال، بداية من المحيط الهادي في الشرق- مقابل اليابان-، ونهاية بسواحل الشمال، غير أن القليل من هذه السواحل يصلح للملاحة واستقبال السفن. فالسواحل الشمالية تطل على بحار تتجمد اكثر من ثمانية أشهر في العام، بينما كثير من سواحل البحر الأسود مرتفعة، وذات جروف عالية.

وعلى نحو التباين في المناخ والتباين في التضاريس فهناك تباين مماثل في التكوين السكاني - الديموغرافي- لمواطني الاتحاد السوفييتي. ويظهر ذلك واضحاً في شكل السكان، فأهل أرمينيا مميزون بلونهم الزيتوني الداكن، أما أهل ليتوانيا فشقر- بيض- والقرغيز طوال القامة، سمر البشرة، لهم عيون منحرفة[1] بينما الروس (الصقالبة) فيشبهون الاوروبيين الشماليين في شكلهم. ويبلغ عدد الصقالبة الذين يسكنون مساحة الأرض الواسعة المعروفة بأسم (روسيا الاوروبية) في حدود (١٤٠) مليوناً، وعاصمتهم موسكو. غير أن هناك جماعات أخرى صغيرة العدد، فهناك في القوقاز مثلاً جماعة قومية تسكن قرية واحدة صغيرة. ولذلك فليس من المستغرب أن تدرس العلوم في الاتحاد السوفييتي بأكثر من مائة لغة.

---

(١) القرغيز: KIRGHIZIE = KIRGHIZISTAN- جمهورية سوفييتية، أصبح دولة عضواً في مجموعة جمهوريات الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٣٦ وهي في آسيا الوسطى على حدود سينكيانغ وعاصمتها فرونزه : FROUNZE (أو بيشبك: PICHPEK)

إن ظاهرة التباين الديموغرافي- السكاني- تتطلب بالضرورة - العودة إلى ما تعرضت له روسيا من تبدلات وتحولات عبر تاريخها الطويل. ولقد تركز التاريخ الروسي المبكر على اقاليم الجنوب، فهناك، في سهول الاستبس الشاسعة، حيث الموطن التقليدي للقبائل البدوية الرحل، كانت تتقاطر جموع من الشعوب المختلفة كأنها السيل المتلاحق، وتمر بها مروراً أو تستقر فيها. وكانت موجة القبائل الفارسية - الايرانية - من أقدم الموجات، ثم جاءت بعدها موجة (السلافيين)[٢] التي تشكل العرق (الهندي - الاوروبي) والتي لم تلبث أن أنقسمت الى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى، وهي السلافيين الغربيين في بولونيا وألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا وروسيا جنوب الكاربات (بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ولوسكاس- أوفانديه) والمجموعة الثانية ، وهي مجموعة السلاف الشرقيين أو الروس والذين انقسموا بدورهم الى الروس الكبار، والروس الصغار والروس البيض- أو بيليروسا-. اما المجموعة الثالثة، فهي مجموعة السلاف الجنوبيين- أو اليوغوسلافيين- وينتشرون في (صربيا وكرواتيا وسلوفينا) وهكذا فقد انتشر العرق السلافي من (فينيتي)[٣]حتى الأورال. وطغى على قسم كبير من آسيا الوسطى والشمالية. وقد اضطر السلاف خلال توسعهم للاصطدام (بالقوط)[٤] المنحدرين من (الغستولا) في بولونيا، والذين شكلوا العرق الجرماني ثم انحدروا الى جنوب- شرق اوروبا حيث انقسموا في القرن الثالث الميلادي الى فرعين (القوط الشرقيين) و(القوط الغربيين) الذين اجتاحوا الامبراطورية الرومانية ودمروهاسنة" ٤١م" وأقاموا دولتهم في أسبانيا حتى جاء المسلمون فقضوا على حكمهم (سنة ٧١١ م).

عبرت روسيا بعد ذلك قبائل (الهون)[٥] وهي قبائل بربرية من التتار قدمت من اطراف بحر قزوين، واجتاحت اوروبا تحت قيادة اتيلا في منتصف القرن الخامس

---

(٢) السلافيين: SLAVES- وعدد الاوروبيين السلافيين اليوم (٢٥٠) مليوناً تقريباً.

(٣) فينيتي: Vénètes- شعب من الغول: GAULE يقيم حالياً في اقليم موربيهان في فرنسا.

(٤) القوط: GOTHS

(٥) الهون: HUNS

الميلادي، ودمرت الغول. وتبعهم (الآفاريون)[٦] الذين انحدروا من منطقة (الأورال) واقضوا مضجع اوروبا طوال ثلاثة قرون حتى تمكن شارلمان من تدميرهم (٧٩٠ ـ ٨٠٤ م.) . وبقي السلاف تحت سيطرة قبيلة ذات أصل تركي، تدعى قبيلة (بيتشينيج)[٧] وكان موطنها على امتداد شاطيء البحر الأسود. ولمواجهة خطر قبيلة (بيتشينيج) ظهر مدافع نصير من مصدر لم يكن يتوقعه أحد قط، فمن السويد جاء الروس، وهم قبيلة من الڤارانج أو (الفايكنج) طالما كانوا يقومون بالاتجار عبر سهول الاستبس مع القسطنطينية. وقد اضطلع الروس بالدفاع عن القبائل السلافية. وفي هذا الصدد، فإنهم سيطروا عليهم وأصبحوا مؤسسي الدولة الروسية.

لقد تأسست أول أسرة حاكمة روسية ـ على ما يعتقد في (نوفغورود)[٨] على يد (رودريك)[٩] في العام (٨٦٢ م). وكان الحدث الأكثر اهمية هو قدوم (أوليغ) شقيق (رودريك) في سنة (٨٨٦ م) الى (كييف) وجعلها مركز امارة اخذت في بسط نفوذها على ما حولها تدريجياً حتى ضمت اليها مساحات شاسعة، ولم تلبث سلطة الأمراء العظام في (كييف)[١٠] أن دعمتها سلطة الكنيسة. **ففي عام (٩٨٨) أدخل حاكم كييف الديانة الارثوذكسية المسيحية بتأثير من الكاهن المبشر (فلاديمير) وفرضها على شعبه بدلاً من الوثنية. وقد اختار حاكم كييف المذهب الارثوذكسي الذي يدين بالولاء الى القسطنطينية لا إلى روما.** فكان أن أهدى الامبراطور البيزنطي تاجاً ثميناً الى (القديس فلاديمير)[١١] مكافأة له على جهوده. وقد استخدم حاكم كييف الدين الجديد لتوحيد الامارة الروسية الجديدة. وعند نهاية القرن الحادي عشر ميلادي، ظفرت كييف بسيادة

---

(٦) الآفاريون: AVARES = AVARS.

(٧) بيتشينيج: PETCHENEGLS عرق تركي ـ تتاري ـ اقام في القرن التاسع الميلادي على ضفاف البحر الأسود. وقد حاربهم الخمينيون ـ أو الكومان ـ COMMÉNE سنة ١١٢٣ م.

(٨) نوفغورود: NOVGOROD

(٩) روريك: RURIK

(١٠) كييف: (Kiev) عاصمة اوكرانيا، تقع على أعالي الدنيبر.

(١١) فلاديمير: VLADIMIR القديس (مات سنة ١٠١٥). واسست مدينة تيمناً باسمه.

اعترفت بها كثير من الامارات الثانوية، وكان من بينها (نوفغورود) و (بيريا سلافل)[١٢] و (فلاديمير) و (هاليكز)[١٣] و (سوزدال)[١٤]. ولكن (كييف) كانت تعاني بصورة متزايدة من غارات قبيلة مخيفة، حلت محل قبيلة (بيتشينيج) في الجنوب، وهي قبيلة (الكومان)[١٥].

وفي الوقت الذي كانت فيه (كييف) ترهقها الغارات المتكررة من جانب الكومان، استطاعت بعض الامارات التي كانت تتمتع بالأمن أكثر منها، أن تزيد من قوتها بالنسبة إلى قوة كييف. ومن هذه كانت إمارة سوزدال في الشمال الشرقي. وعقب وفاة روستسلاف أمير كييف عام ١١٦٨ قام (أندرو بوجلوبسكي) بالاغارة على كييف ونهبها. وقد اتخذ لنفسه لقب الأمير الأعظم، ولكنه لم ينقل مقره الى كييف. وهكذا فإن مركز الدولة الروسية انتقل من الجنوب الى روسيا الوسطى. ولم يستطع أمراء سوزدال الاحتفاظ بلقب الأمير الأعظم عهداً طويلاً، إذ سرعان ما انتقل اللقب إلى حكام إمارة (فلاديمير). ولكن لم يكن بين هؤلاء الحكام من ظفر بالسيادة الوطيدة التي كانت لإمارة كييف. والحق أن روسيا استحالت في الواقع- في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الى مجموعة من الامارات المستقلة، وأهمها (سوزدال) و (سمولنسك)[١٦] و (نوفغورود) و (هاليكز) ـ التي أخذت بولندا تنازع في امتلاكها ـ. وعلى الرغم من التمزق والانقسام بين الامارات، فإن كثيراً منها كانت ذات ازدهار وتقدم. فقد ارتفعت المباني الجميلة في المراكز التجارية (مثل نوفغورود) وشيدت الكنائس والاديرة في كل مكان. وقام في مناطق الحدود الجنوبية القليلة الحماية مغامرون ذوو جرأة. مثل (ايفان برلاونك) فاقتطعوا لأنفسهم امارات قصيرة الأمد، وحاربوا الكومان من أجلها.

---

(١٢) بيريا سلافل: PEREYASLAVL

(١٣) هاليكز: HALICZ

(١٤) سوزدال: SUZDAL

(١٥) الكومان: COMMENE عائلة بيزنطية، قدمت (٦) اباطرة (امبراطور) وعدداً من الامراء في (طرابزون).

(١٦) سمولنسك: (SMOLENSK) مدينة روسية تقع على نهر الدنيبر، وكانت مركز امارة للمنطقة المحيطة بها.

جاءت بعد ذلك هجمات المغول- التتار- في أوائل القرن الثالث عشر، لتجتاح قسماً كبيراً من روسيا، ولتخضع اماراتها قروناً طويلة لحكم الغزاة البرابرة. ولقد كانت هذه الغزوات موجهة في البداية ضد العالم الاسلامي، وترافق ذلك مع أوج الحملات الصليبية على بلاد الشام وفلسطين. غير أن الجيش الذي أرسله (جنكيزخان) بقيادة قائديه (سبوتاي وجيب) لمطاردة أمير الخوارزمية (محمد خوارزم شاه). هذا الجيش تجاوز في شباط - فبراير- سنة (١٢٢١ م) حدود (أذربيجان) واجتاح بلاد الكرج المسيحية (أرمينيا) فدمر جيشها. وفي أوائل السنة التالية (١٢٢٢) استباح جيش المغول (التتار) الاقاليم الشرقية من بلاد الكرج، وأنزل هزيمة ساحقة بالقوات التي حاولت التصدي لتقدمه، ومضى في سيره على امتداد شاطيء بحر قزوين، فاجتاز دروب قزوين، واتجه نحو بلاد (القبجاق- الروس) بين نهري (الفولغا والدون). فأسرع (القبجاق) الى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز (من اللان واللكز)، غير أنه لما عرض قائدا جيش المغول (سبوتاي وجيب) على هاتين القبيلتين نصيباً من الغنيمة، لم تتدخلا حينما سحق المغول القوقازيين. وكان (اللان واللكز) عرضة بعد ذلك للدمار عندما تحول التتار لقتالهما عقب الفراغ من القوقازيين الذين حاولوا بذل الرشوة للروس كيما ينهضوا لمساعدتهم. **وعرف الروس أن التتار لا بد وأن يتعرضوا لهم بعد ذلك، فشكلوا جيشاً روسياً ضخماً بقيادة امراء (كييف وجاليش وشرنيخوف وسمولنسك)، غير أن هذا الجيش تحطم على ضفتي نهر كلكا، قرب بحر آزوف**، ولكن القائدين (سبوتاي وجيب) لم يواصلا تقدمهما نحو الغرب، بل نفذا الى بلاد القرم، ونهبا المحطة التي أقامها الجنويون في صولدايا. ثم عادا الى الشرق ليلحقا بجنكيزخان، عند نهر سيحون، في أوائل سنة (١٢٢٣). وكان ضحايا الغرب في هذه الاغارة العنيفة يأملون في عدم تكررها، واعتبروها ظاهرة طارئة. بينما أظهر جنكيزخان اغتباطه بقائديه، اللذين أجريا استطلاعاً بالغ القيمة، وبرهنا أنه ما من جيش في غرب آسيا يستطيع أن يتصدى لهما. وعلاوة على ذلك، فإن ما أثارته هذه الاغارة من الفزع والخوف - لدى الأمم النازلة بتلك الجهات، سيمنع كل الشعوب من المخاطرة بالمقاومة، اذا حان الوقت للقيام بغارة جدية. وعندما توفي جنكيزخان سنة (١٢٢٧). امتدت املاكه من كوريا

الى فارس، ومن المحيط الهندي الى سهول سيبيريا المتجمدة. وكان الروس في جملة من اخضعهم التتار لحكمهم.

اقتسم ورثة جنكيزخان العالم الذي فتحوه، فكانت اقاليم الغرب حتى نهر الفولغا من نصيب ابناء جوجي ـ الابن الاكبر لجنكيزخان ـ وهم (باطو واوردا وبركه وشيبان). وفي ربيع سنة ١٢٣٦ ، احتشد جيش مغولي ضخم شمالي بحر آرال، بقيادة (باطو بن جوجي) الذي شملت أملاكه تلك السهوب. وصحب باطو، اخوته وأربعة من أبناء عمومته (كيوك وقاذان ولدي اوكيتاي) و (بايدار بن جفتاي) و (مونك بن تولوي). ولما فرغ الجيش المغولي من استعداداته تحت اشراف القائد الشيخ (سبوتاي) رئيس اركان حرب الجيش، زحف الى البلاد الروسية في خريف سنة (١٢٣٧) فاستولى عنوة على (ريضان) في ٢١ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ودارت مذبحة هلك فيها أميرها وجميع سكان المدينة. ثم سقطت (كولومانا) بعد بضعة أيام. وفي أوائل السنة الجديدة (١٢٣٨) هاجم المغول مدينة (فلاديمير) الكبيرة، والتي لم تصمد للقتال اكثر من ستة أيام. واقترن سقوطها في ٨ شباط ـ فبراير ـ سنة (١٢٣٨) بمذبحة جماعية اخرى. وتعرضت (سوزدال) للنهب حوالى ذلك الوقت، وتبع ذلك الاستيلاء على مدن روسيا الوسطى وتدميرها: (امثال ـ موسكو ويوربيف وجاليشن وبريسلاف وروستوف وياروسلاف).

وحدث في ٤ آذار ـ مارس ـ أن حلت الهزيمة بالامير الكبير يوري ـ سيد فلاديمير ـ ولقي مصرعه على ضفاف نهر سيتي. ولم تلبث (تفير وتورزوك) أن سقطتا في أيدي التتار بعد المعركة. وتقدم الغزاة فاجتازوا تلال (فالداي) قاصدين (نوفغورود). وواتى تلك المدينة الحظ الطيب، بأن غمرت أمطار الربيع ما كان يحيط بها من مستنقعات. فانسحب (باطو) وأمضى ما تبقى من السنة في سحق آخر ما صادفه من مقاومات القبجاق. بينما قهر ابن عمه (مونك) اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز، ثم قام بغارة استكشافية حتى بلغ (كييف).

قاد (باطو) كتلة الجيش الرئيسي للمغول (التتار) في خريف سنة (١٢٤٠)

متوجهاً بها الى اوكرانيا، فنهب (شرنيجوف) و (بريسلافل)واستولى عنوة على(كييف) في ٦ كانون الاول- ديسمبر- سنة (١٢٤٠) بعد أن استبسلت في الدفاع. وتعرض للدمار مقادير كبيرة من كنوزها العظيمة. ولقي معظم سكانها مصرعهم، على أنه جرى الابقاء على حياة ديمتري قائد الحامية، لشجاعته التي استرعت إعجاب باطو. ثم تحركت من (كييف) شعبة من الجيش المغولي بقيادة (بايدر ابن جغتاي) ومضت نحو الشمال الى (بولندا) فنهب (ساندومير) و (كراكوف). فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون النازلين على ساحل بحر البلطيق. غير أن جيوشهم المتحدة بقيادة (هنري) دوق سيليزيا، تعرضت في ٩ نيسان- أبريل- لهزيمة ساحقة، بعد معركة عنيفة دارت رحاها في فاهلشتات: قرب (ليبجنتز). وتابع (بايدر) تحركه، فاجتاح سيليزيا وخربها، ثم توجه الى بلاد المجر في الجنوب بعد أن أجتاز (مورافيا).

مضى (باطو وسبوتاي) أثناء ذلك الى (غاليسيا) بعد أن ساقا أمامهما جموعاً من الآبقين الذين استبد بهم الخوف، وانتموا الى كل أقوام الاستبس. ثم اجتازا جبال الكربات الى سهل المجر. وقاد (بيلا) ملك المجر جيشه للقائهما، غير أن هزيمة ساحقة حلت به يوم ١١ نيسان - أبريل- عند جسر موهي على نهر سايو. فتدفق المغول على بلاد المجر، ونفذوا الى كرواتيا، وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل بحر الادرياتي. وأقام (باطو) بضعة شهور في بلاد المجر. حيث بلغه بعدها نبأ موت الخان الكبير(اوكيتاي) في قراقورم يوم ١١ كانون الاول - ديسمبر- ١٢٤١. على أثر ذلك، نظم (باطو) الحكم في روسيا، وأقام حاميات عسكرية قوية في مدنها. ونقل مقره الى الروافد السفلى لنهر الفولغا، كيما يسيطر على اتباعه الامراء في روسيا. وأنشأ بتلك الجهات الخانية التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم (القبجاق) والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم (القبيلة الذهبية)[١٧].

---

(١٧) القبيلة الذهبية(HORD D'OR. E) (GOLDEN HORDE. E) مملكة اسسها المغول- التتار في القرون الوسطى، وامتدت من سيبيريا حتى جنوب روسيا. وقد تركت هذه المملكة التي انهارت في القرن الخامس عشر، أثراً عميقاً في كافة الشعوب السلافية التي خضعت لحكم المغول.

في الوقت ذاته، تابع المغول التتار حربهم ضد العالم الاسلامي، فاجتاحوا بغداد عاصمة الدولة العباسية، ودمروها (بقيادة هولاكو) سنة ١٢٥٨. غير أن هزيمتهم في (عين جالوت) يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٢٦٠ على ايدي (المظفر قطز) وضع حداً نهائياً لامتدادهم وتوسعهم، بل إن هذا النصر انعكس على التتار أنفسهم، إذ لم يلبثوا أن تحولوا الى الاسلام. وكانت (القبائل الذهبية) في جملة من اعتنق الاسلام[١٨] ولما ظهر (تيمورلنك الاعرج) عاد فجدد غارات (قدامى التتار) فاستولى على فارس (ايران) ووصل بغداد سنة ١٣٩٢. وتوجه أثناء السنوات التالية بحملات الى روسيا لقتال مغول (القبيلة الذهبية) ومضى في توغله حتى بلغ موسكو في سنة ١٣٩٤. ثم اصطدم بالسلطان بايزيد، وانتصر عليه في معركة حاسمة يوم ٢٠ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٤٠٢.

لم يكن خطر المغول ـ التتار ـ على كل حال، هو الخطر الوحيد الذي تعرضت له الامارات الروسية في بداية تشكلها. إذ بينما كان سلطان المغول ينتشر في الجنوب ويتعاظم، كانت هذه الامارات عرضة للتهديد من الشمال ومن الغرب. لا سيما من جانب (السويد) و (بولندا) و (ليتوانيا)[١٩] التي أخذت تقوم بغارات واسعة في داخل الأراضي الروسية. وكانت (نوفغورود) هي الامارة الروسية التي تتمتع بموقع ملائم كل الملاءمة إزاء هذه الاغارات، ولذلك أصبحت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر عاصمة لروسيا في المجالات التجارية والعمرانية. وقد استطاع اميرها العظيم (الكسندر نيفسكي)[٢٠] هزيمة السويديين سنة (١٢٤٠) ثم فرسان التيوتون سنة (١٢٤٢) ومنذ ذلك الحين، توافرت لها فرص الرخاء المتزايد بحكم اتصالها ببحر البلطيق، وعلاقاتها التجارية مع الالمان.

---

(١٨) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٤٢٥ ـ ٤٣٧.

(١٩) ليتوانيا: LITHUANIA (LITUANIE) تشكل حالياً احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي في اوروبا الشرقية، تقع على البلطيق وعاصمتها (فيلنيوس: VILNIUS) وكانت في القرون الوسطى امارة ـ دوقية ـ ضمتها بولونيا اليها فيما بعد، ثم الحقتها روسيا ببلادها. ولم تعلن دولة مستقلة إلا في سنة ١٩١٩. واعيد الحاقها ببولونيا (١٩٢٠ ـ ١٩٢٢) وضمت المانيا النازية بعض البلاد اليها حتى سنة ١٩٣٩.

(٢٠) الكسندر نيفسكي: ALEXANDER NEVSKI

اتخذ حكام المغول- التتار - قراراً في بداية القرن الرابع عشر، كان له اثر كبير في تقرير مستقبل روسيا. وكان هذا القرار يتلخص بمنح حرية الحكم للامراء المحليين، وتكليف اكبر الامراء الروس بجمع الضرائب والغرامات- الاتاوات- من بقية الامراء. وكان اكبر امراء الروس في تلك الفترة هو (امير فلاديمير الأعظم) فدعم ذلك من مكانته. ولكن بعد مضي عهد طويل على حاملي هذا اللقب، زالت عنهم صفة الحكام الحقيقيين لامارة فلاديمير. وأصبح أقوى الامراء يتصارعون فيما بينهم للفوز بهذا اللقب، أو يقومون برشوة حكام المغول (الخانات) في سبيل ذلك.وقد استحوذعلى اللقب امراء نوفغورود في بداية الأمر، ولكن ما لبثت أن ظهرت فجأة قوة جديدة في القرن الرابع عشر. فإن مدينة موسكو أصبح يسيطر عليها (دانييل) ابن (الكسندر نيفسكي) الأصغر. وما لبث أن أضاف اليها إمارة (بيريا سلافل) ثم ظفر (يوري بن دانييل) في سنة ١٣١٩ بلقب الأمير الأعظم، واعتباراً من تلك الفترة، أصبح حكام موسكو يستأثرون دوماً باللقب المتصارع عليه.

افادت موسكو من موقعها الجيواستراتيجي لزيادة قدرتها، فهي كما هو معروف، تقع على الطرق النهرية لروسيا الاوروبية، وتتصل ببحر البلطيق شمالاً، والفولغا الأسفل، والبحر الأسود جنوباً.وكانت التجارة تسلك هذا الطريق حاملة الفراء والعنبر وأحياناً الرقيق نحو الجنوب. كما كانت تحمل التوابل الثمينة والحرير نحو الشمال. وقد تعرضت موسكو لغزوات التتار وللخراب في سنة (١٢٣٧ و١٢٩٣ و١٣٨٢ و ١٥٧١ و ١٥٩١) وبالرغم من ذلك، استطاعت في كل مرة تضميد جراحها والنهوض من كبوتها، واعادة بناء قدرتها الذاتية: وقد تزايدت قدرة موسكو بارتباطها الوثيق بالكنيسة حيث جعل مطران روسيا مقر كرسيه في موسكو منذ سنة (١٣٢٥) وبعد استيلاء المسلمين العثمانيين على القسطنطينية سنة (١٤٥٣) تقلد المطران رئاسة الكنيسة الارثوذكسية، وأخذت روسيا على عاتقها قيادة الحرب الصليبية ضد المسلمين، وانتحال زعامة الكنيسة الارثوذكسية - الشرقية - وحماية طائفتها.

تدعم سلطان موسكو في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، ولكن

رقعة أراضيها لم تكن تتجاوز بضعة مئات من الأميال في كل اتجاه، عندما ارتقى (ايفان الثالث- الملقب بالعظيم) عرش امارة موسكو (١٤٦٢- ١٥٠٥) ولكن هذه الرقعة امتدت عند وفاته الى المنطقة القطبية وجبال الاورال، وأعالي نهر الدون وديزنا، والى اواسط مجرى الدنيبر. ولم يكن هذا التوسع إلا ثمرة الجهود التي بذلها (ايفان الثالث)[٢١] لقهر أعداء روسيا، فتمكن في سنة (١٤٧٨) من ضم (نوفغورود) التي كانت (ليتوانيا) تطالب بها. ثم انتزع من ليتوانيا (فيازمار شيرنيجوف وسفيرسك)[٢٢] بل إنه أرغم كذلك الحاكم المغولي (خان قازان) على الاعتراف بسيادته. وقد أصدر مجموعة من القوانين تطبق في جميع الأراضي التي أخضعت لحكم موسكو. وجرى ايفان - في مراسلاته الخاصة- على تلقيب نفسه بلقب القيصر (تشبهاً بقياصرة الرومان)[٢٣] وجرى على نهجه (فاسيلي الثالث) (١٥٠٥ - ١٥٣٣) الذي تابع أعماله، وانتزع من ليتوانيا مدينة (سمولنسك) ثم خلفه (ايفان الرابع- الملقب بالرهيب) والذي تولى عرش روسيا ولما يتجاوز سن الثالثة، وحكم روسيا (١٥٣٣- ١٥٨٤). وعاش حياة قاسية منذ طفولته، تركت اثرها عليه طوال عمره. فقد شهد في طفولته بين الفزع والرعب والدسائس التي كانت تحيكها العائلات الارستقراطية المعروفة باسم (البويار)[*] وهي تتصارع من أجل السلطة. ولم يلبث ايفان أن نادى بنفسه قيصراً في عام (١٥٤٧) وقد برهن على أنه حاكم متنور حقاً، إذ أصدر قوانين لمساعدة الفقراء ضد الأغنياء. واتخذ خطوات لتحسين تعليم رجال الدين. كما أنه وسع رقعة أراضي موسكو، وأخضع تماماً

---

(٢١) ايفان: (IVAN) اسم عدد من امراء روسيا وقياصرتها، اولهم ايفان الاول- الكبير- KALITA وهو امير روسيا العظيم (١٣٢٨- ١٣٤١) ثم ايفان الثاني- ابن الاول- وحكم امارة موسكو (١٣٥٣- ١٣٥٩) وايفان الثالث- (١٤٦٢- ١٥٠٥) وهو أول من حمل لقب القيصر. ثم ايفان الرابع - الرهيب (١٥٣٣- ١٥٤٨) وايفان الخامس حكم سنة ١٦٨٢- ١٦٩٠- وايفان السادس، قيصر روسيا سنة (١٧٤٠) عزلته القيصرة اليزابيت والقت به في السجن بعد ذلك حتى مات في عهد القيصرة كاترين الثانية (سنة ١٧٦٤).

(٢٢) فيازما (VYAZMA) وشيرنيجوف (CHERNIGOV) وسفيرسك (SVERSK)

(٢٣) لقب قيصر (TSAR) يقابل باللغة الرومانية (CAESAR)

(*) البويار (BOYAR)

ولايتي (قازان)(٢٤) و (استراخان)(٢٥) اللتان كانتا تابعتين لحكم بقايا المغول. وقد أدى اتجاره مع انكلترا إلى مزيد من الثراء الوافر له. كذلك عقد تحالفاً مع الملكة (اليزابيث)(٢٦) وطلب منها ايفاد خبراء في بناء السفن، بل إنه تقدم بعرض للزواج بها. بيد أن (إيفان) ما عتم أن تغير تغيراً كلياً في النصف الثاني من عهد حكمه. فقد أصبح يخامره الشك في طبقة (البويار) فألقى عليهم تبعة وفاة زوجته عام (١٥٦٠) ثم أقام شبكة للتجسس بهدف كشف أي دليل على الخيانة. وكانت الاعتقالات تتم على نطاق واسع. وأصبح كثيرون من الأبرياء يلقون حتفهم قتلاً أو إعداماً. ثم تملكه الجنون بعد أن استنزفته مشاعر الخوف والشكوك. وفي عام (١٥٨١) قتل بيديه ولي عهده (ايفان) ولم تنقض على ذلك ثلاثة أعوام حتى قضى نحبه. وتميزت فترة حكم (ايفان الرهيب) بظاهرتين لم تلبثا أن لازمتا حكم القياصرة حتى نهايته، وهما: التوسع المستمر للبلاد الروسية في كل الاتجاهات: شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وظهور مشكلة الاقنان (الرقيق) بكل قسوتها، وبذل محاولات متعددة للتخفيف من شدة وطأتها، والمطالبة المستمرة بتحرير (العبيد- الاقنان).

تعرضت روسيا بعد موت (ايفان الرهيب) لمرحلة من الاضطرابات عرفت بصفة (فترة المتاعب) حيث أصبحت بلاد الروسيا نهباً للتمزق والانقسام بسبب الحرب الأهلية التي نشبت بين الأسر الأرستقراطية المتنافسة فيما بينها على الحكم والسيطرة (البويار). وأدى ضعف روسيا الى تعاظم أطماع جوارها فيها، وتمكن السويديون والبولنديون من

---

(٢٤): قازان: (KAZAN) مدينة روسية (في الاتحاد السوفييتي حالياً) وهي تقع على نهر الفولغا، وعاصمة جمهورية التتار، وكانت مركز امارة تحمل اسمها.

(٢٥) استراخان: (ASTRAKHAN OU ASTRAKAN) مدينة روسية (من مدن الاتحاد السوفييتي) تقع في جزيرة في بحر قزوين، وميناء على مصب نهر الفولغا. كانت مركز امارة تحمل اسمها. وتشتهر بثروتها بالفراء.

(٢٦) الملكة اليزابيت: ELISABETH . ملكة انكلترا (١٥٣٣- ١٦٠٣) ابنة هنري السابع وآن بولين (ANNE BOLEYN). اشتهرت بالحزم والاستئثار بالسلطة. دعمت البروتستانتية وعملت لها بحماسة. ودعمت الاقاليم المتحدة الثائرة ضد اسبانيا. وتحالفت مع ملك فرنسا هنري الرابع. دعمت وحمت الادباء والفنانين وشجعت التجارة والاستعمار، وبها انتهى فرع (ادوار) لم تتزوج.

غزو مناطق واسعة من الأراضي الروسية، بل ان البولنديين أفلحوا في الاستيلاء على موسكو وإحراقها. ثم استطاع (البويار) في النهاية تسوية خلافاتهم، بانتخاب قيصر من أفراد (أسرة رومانوف)[٢٧] بدا أنه كان مقبولاً من كافة الاطراف. وهكذا أصبح (ميخائيل رومانوف)[٢٨] قيصر روسيا في عام (١٦١٣) وظلت هذه الاسرة متربعة على عرش روسيا القيصرية حتى قيام الثورة الشيوعية سنة (١٩١٧). حيث تمت ابادة (نيقولا الثاني وجميع أفراد أسرته ومن يلوذ بها لتصفية حكم هذه الأسرة نهائياً).

كان القرن السابع عشر هو عهد التوسع لروسيا. ففي عهد حكم (الكسيس) (١٦٤٥ـ ١٦٧٦)[٢٩] اضطرت بولندا أن تتخلى لروسيا عن كافة الأراضي المتاخمة لشرقي (الدنيبر)[٣٠] وكذلك عن مدينتي (كييف) و (سمولنسك). وفي الوقت ذاته، اخذت روسيا في التوسع شرقاً على حساب بلاد العالم الاسلامي. وأخذ الروس في ارتياد (سيبيريا)[٣١] والتوغل فيها. وكانت سيبيريا في تلك الفترة غير مأهولة تقريباً. وبدأت روسيا في الظهور كقوة جديدة لها ثقلها في المجتمع الدولي المعاصر لها. ولم تعد مجرد

---

(٢٧) اسرة رومانوف (ROMANOV DYNASTIE) عائلة روسية، حكمت روسيا في الفترة (١٦١٣ـ١٧٦٢) على أن عائلة هولشتين غوتورب (HOLSTEIN-GOTTORP) المتفرعة بالمصاهرة عن عائلة رومانوف هي التي حكمت البلاد من (١٧٦٢ـ ١٩١٧) باسم عائلة رومانوف.

(٢٨) ميخائيل رومانوف (MICHAEL ROMANOV) مؤسس حكم عائلة رومانوف في روسيا، وحكم في الفترة (١٦١٣ـ ١٦٤٥).

(٢٩) الكسيس: (ALEXIS MIKHAILOVITCH) قيصر روسيا، ولد في سنة ١٦٢٩ وهو والد بطرس الاكبر. وهناك ايضاً الكسيس بتروفتش (ALEXIS PETROVITCH) الابن الوحيد لبطرس الاكبر (١٦٩٠ـ١٧١٨) تآمر ضد والده، فحكم عليه بالموت. طالع وجيز قصته في نهاية الكتاب (قراءات).

(٣٠) الدنيبر: (DNIEPER-RIVER) نهر في روسيا البيضاء واوكرانيا، ينبع من مسطح فالداي: (VALDAI) وترفده روافد بريبيه (PRIPET) ودسنا (DESNA) ويصب في البحر الأسود، وكان اسمه قديماً (بوريستين: BORYSTHENE) وطوله (١٩٥٠) كيلومتراً.

(٣١) سيبيريا: (SIBERIA) وتسمى بالحديقة الخلفية للاتحاد السوفييتي، تمتد من جبال الاورال حتى المحيط الهادي شرقاً، ومن المحيط المتجمد شمالاً حتى بحر قزوين جنوباً. وهي بلاد الغابات الضخمة. وثروة الفراء، وتبلغ مساحتها خمسين ضعفاً مساحة المملكة المتحدة. وبها من الثروات ما يجعل الاتحاد السوفييتي من أغنى بلاد العالم (كالطاقة الكهربائية والماس الطبيعي والفحم والحديد والصفيح والغاز الطبيعي والزيت والالمنيوم.

امارات ضعيفة. وفي هذه الفترة ظهر (بطرس الأكبر) ليصل بروسيا الى عهد جديد، ولينطلق بها انطلاقة ثابتة نحو افق المستقبل.

٢ـ بطرس على طريق البداية الشاقة

كـان للقيصـر (الكسيس ميخـائيلوفيتش) من زوجتـه الأولى (مـاريـا ميلوسلافسكي) ولدان هما: (فيودور وايفان) بالاضافة الى ست بنات. وكان له من زوجته الثانية (ناتاليا فاريتشكين) صبي هو (بطرس الأول) وابنتان. وإذا كان قد تزوج مرتين، وبحسب العادة المألوفة، كان أقرباء القيصرة يحيطون بالعرش. فنتج عن ذلك وجود حزبين متضادين ببلاطه، يضم أقرباء امرأته الأولى وأقرباء امرأته الثانية. وتفجرت ظواهر العداء عند وفاة فيودور المبكرة، إذ كان أقرباء امرأته الأولى يريدون تنصيب (إيفان) غير انه كان لسوء حظهم ضعيف الامكانات العقلية والجسمية في وقت واحد. بينما أراد أقرباء امرأته الثانية تنصيب بطرس لما عرفوا فيه من ذكاء مبكر وقاد وكفاءة عالية وطموح كبير. وقد أدى الاختلاف بين أقارب الزوجتين الى محاورات ومجادلات كثيرة، والى مناقشات حادة وعنيفة. وفي النهاية اجتمع كبار المسؤولين مع بطريرك موسكو (البطريرك واكيم) وتقرر تنصيب (بطرس) قيصراً على روسيا ولما يتجاوز عمره التسع سنوات. وقد اعتمد الذين اتخذوا هذا القرار على وصية (فيودور) الذي طلب تنصيب أخيه لأبيه (بطرس) لما عرفه من عدم صلاحية اخيه لامه وأبيه (ايفان) لادارة الملك. وقد اغتاظ أقارب (ماريا) وأضمروا الحقد، غير أنهم كانوا عاجزين عن القيام بأي عمل نظراً لعدم قدرتهم الاعتماد على (ايفان) لتولي القيادة. غير أن المشكلة لم تصل الى نهايتها بتنصيب (بطرس). إذ كانت أخوات أيفان ـ البنات الست ـ قد شببن عن الطوق، فكانت اكبرهن قد بلغت (٣٢) سنة، في حين كانت أصغرهن قد تجاوزت (١٩) سنة. وكانت (صوفيا) ثالثة اخواتها قد بلغت (٢٥) سنة من عمرها وتميزت على أخواتها بذكائها ومكرها وشدة طموحها. (ومعلوم أن زواج بنات الملوك كان من أصعب الأمور، فكان اكثرهن ينقطعن عن العالم ويترهبن). ورفضت (صوفيا) الاستسلام لهذا

المصير، وطمحت الى الملك والسيطرة. وكان يحول دون قصدها عقبات كؤودة من الصعب تذليلها. لا سيما وأنه لم يكن من المسموح به، أو المألوف، اختلاط النساء بالرجال، أو الظهور أمامهم غير محجبات. وأخذت (صوفيا) في التفكير بالوسائل التي تسهل لها مهمتها، وتساعدها على بلوغ أمنيتها. وكان أول ما فعلته هو الظهور في مأتم أخيها فيودور، مع أن ذلك كان محظوراً حتى على أرملة الفقيد أو وريث عرشه. ثم مضت في تنفيذ خطتها، فقربت اليها جماعة من العلماء والادباء الذين اخذوا في مناصرتها، والاشادة بفضائلها وخصالها، وتشجيعها على ممارسة السلطة، وكانوا يشبهونها بملكة بريطانيا (اليزابيث) وحتى بالملكة (سميراميس) وقالوا انها صوفيا (حكمة) بالاسم والفعل. ولاحظت (صوفيا) أن خالتها (ناثاليا) تربي ابنها (بطرس) تربية حسنة تؤهله ليكون قيصراً عظيماً، فأخذت تظهر كراهيتها لخالتها. وعقدت مجلساً مختلطاً من الأشراف والاكليروس وخاصة الشعب، وأظهرت أمامهم حقوقها بالدفاع عن (ايفان) وحمايته باعتبار أن له الأولوية بالحكم، وأكدت استعدادها لمساعدته في ادارة شؤون الدولة، غير أن الاجتماع كان عقيماً، ولم تنل صوفيا منه غايتها. وكان الجيش الروسي يضم فرقة (وجاق) أشبه ما تكون بفرقة (الانكشارية) لدى العثمانيين، وتعرف باسم (الاسترلتش). فوضعت (صوفيا) خطتها للاستعانة بهذه الفرقة من أجل بلوغ هدفها، وأغدقت على رجال هذه الفرقة الأموال والهدايا ومنحتهم الامتيازات حتى صاروا يدينون بالولاء لها، واستمالت قادتهم، بعضهم بالاعطيات وبعضهم بالوعود، ونظمت عدداً كبيراً منهم في شبكة للجاسوسية، ترتبط بها، وتنقل اليها أخبار البلاط، لتنشر ما يناسبها على العامة، وإشاعة ما ترغب اشاعته. وزعمت أن (فيودور بن الكسيس- اخاها الاكبر) قد قتل بيد مثيري الفتن الذين يعتزمون- بدون شك- الحاق أخاها ايفان به. وصورت بأسلوب مثير ما ستتعرض له اخواته الست، بنات الملوك، بعد ذلك، وأخيراً، اذاعت علناً بأن ابن خالتها (ناثاليا) قد اغتصب التاج اغتصاباً، وجلس على العرش، وأن ايفان مات مخنوقاً.

اهتاجت موسكو لهذه الشائعات المختلقة، وأمسكت (صوفيا) في قبضتها بخيوط تحريك الأحداث، فاشتعلت نار الفتنة، وقرعت أجراس أربعمائة كنيسة في (المدينة

المقدسة). وحمل جند (الاسترلتش) أسلحتهم، وساروا نحو الكريملين، يتبعهم جمهور عظيم من المواطنين، تقرع أمامهم الطبول، ويجرون خلف المدافع. وكانت (ناثاليا) مع (بطرس) و (ايفان) المزعوم بأنه قد مات خنقاً. وكان مجرد وجوده كافياً لتكذيب كل الشائعات. ورأى (الاسترلتش) أنهم خدعوا. فقام أحد قوادهم سابقاً (مارتفيف) خطيباً، وانذرهم البطريرك حتى عادوا على أعقابهم، وهدأت الفتنة. غير أن عائلة (ميلوسلافسكي) لم تقنع بهذه النتيجة، فمضت في التحريض لإبادة خصومها وأعدائها. فتجددت الثورة، وتزايد هياج الجماهير. وعندما حاول رئيس (الاسترلتش) الامير (ميخائيل دولفروكي) تهدئة هياج الثائرين بكلام قاسٍ، اغتاظ منه الثائرون، وقذفوا به من حالق، وطعنوا (مارتفيف) في صدره على مرأى من القيصرة (ناثاليا). وأحاطوا بالقصر. وقتلوا كل من وقع بأيديهم. ثم أمسكوا (أثناسيوس- شقيق القيصرة ناثاليا وخال بطرس الأول) ورموا به من شباك القصر، فتلقاه الجنود برؤوس الحراب ومزقوا جسده ثم عاد الثوار الى الفتك والقتل، واختطفوا من بين أيدي القيصرة (ناثاليا) اباها كيرلس وأخاها ايفان- الذي أرسلوه الى أحد الأديرة. وكانت (صوفيا) تتوسط جموع الثائرين، ركوعاً على ركبتيها، وتشير اليهم بمن تريد الفتك به. وإذ حصل تفاهم بين القيصرة (ناثاليا) وجموع الثائرين، أخلدوا الى السكينة مؤقتاً. غير أنهم اشترطوا أن يقام قيصران: (ايفان- القيصر الأول، وبطرس مساعده) وهددوا بالعودة الى الثورة- اذا ما رفض طلبهم- فطرح الأمر أمام (الدوما) فكان الأكثرون ضده. المهم في الأمر: هو أن (صوفيا) حققت هدفها، وتولت الحكم باسم أخويها (ايفان وبطرس).

أخذت (صوفيا) في ممارسة دورها، والظهور في الحفلات الرسمية والدينية. وتدشين الكنائس، وحضور كل مجمع يقتضي فيه حضور القيصر بصورة رسمية. فكان أخواها القيصرين بالاسم، وهي القيصرة بالفعل. غير أنه لم تمض فترة طويلة حتى هيمنت على (الاسترلتش) مشاعر الكراهية والمقت محل مشاعر الولاء تجاه (صوفيا) واعتبروها غاصبة ومثيرة للفتن. وزاد من بغضهم لها ما رأوه منها من مساعدتها

(لنيكون) وغيره من دعاة الاصلاح الكنسي والمدني. في حين كانوا هم يعتقدون بالايمان القديم. وعلاوة على ذلك، فقد أصدرت أوامرها بالقاء القبض على بعض الذين تطاولوا على البطريرك في محفل رسمي، وأبعدتهم عن موسكو، واشترك رئيس (الاسترلتش) المدعو (خوفالسكي) لاسباب خاصة، بالتحريض على مقاومة (صوفيا) وإثارة مشاعر البغض ضدها، واظهار التذمر من سوء الادارة. ولم يعد القصر الملكي أميناً للسكن. فلجأت (صوفيا) مع القيصرة ناثاليا والاميرين الصغيرين الى دير (تريوستا) واستدعت اليها القادة لعقد مجلس، دعت اليه (خوفالسكي). ولما كان في الطريق، القي عليه القبض وقتل مع ابنه. فلما بلغ ذلك (الاسترلتش) هموا ثانية للثورة. ولكن الجند النظامي بدد شملهم. وأحبط تمردهم، فهبطوا من أعلى صهوة المجد الى أدنى مراتب الهوان، ومشوا الى (تريوستا) والحبال الغليظة تحيط بأعناقهم، والفؤوس الثقيلة بأيديهم، منتظرين القضاء عليهم بالموت. فتوسط البطريرك أمرهم لدى صوفيا التي اكتفت بقتل بعض زعمائهم.

تخلصت (صوفيا) من شركائها في مؤامرتها السابقة. واتخذت لها نصيرين جديدين وهما (تشامكوفتي) رئيس الاسترلتش الجديد. والامير (فاسيلي غالتزين) الذي كان صديقها الخاص ومستشارها في كل الأمور، فهو الذي كان يوجه لها سياستها الخارجية، ويساعدها في ادارة أمور الجند. وكان رجلاً حكيماً، بصيراً بالأمور وحسن التدبير. فشتت شمل (الاسترلتش) وفرق كلمتهم، ووزعهم في شتى أنحاء المملكة لحرمانهم من الشعور بقوتهم، وسعى مع (صوفيا) لعقد محالفة دينية مع بولندا- بولونيا- وفينيسيا والنمسا ضد المسلمين (الاتراك والتتار). واجتهد بحمل بقية الدول الكاثوليكية على المصادقة عليها وتأييدها. وفي سنة (١٦٨٧) أوفد الى بلاط لويس الرابع عشر - الملك الافرنسي- مندوبين هما (يعقوب دولفروكي) و (يعقوب متشنسكي). غير أن الملك الافرنسي لم يظهر اهتماماً باستقبال مندوبي (صوفيا) واكد سياسته في عدم رغبته بمحاربة الاتراك، وأعلن عن تحالفه مع السلطان العثماني (محمد الرابع) الذي كان على وشك مهاجمة فينيسيا، بينما يكون (لويس) قائماً على حصار (لوكسمبرغ). فلما

رأت (صوفيا) فشل مساعيها مع فرنسا، أصدرت أوامرها الى معتمديها بالعودة من الهافر الى روسيا مباشرة.

بقيت حكومة (صوفيا) مصممة على محاربة الاتراك ـ العثمانيين ـ. ووافقت (بولندا) على دعم روسيا ومساعدتها، على شرط أن تصادق لها على شروط معاهدة (اندرو سوفو) والتوقيع على وثيقة معاهدة **(سلم دائم)** بين الدولتين. ووافقت روسيا على ذلك، وجردت حملة ضمت مائة الف جندي بقيادة الامير (كلستين) بالاضافة الى خمسين ألفاً من (القوقاز) بقيادة رئيسهم (سامو لفتش) وزحف هذا الجيش الضخم في محاولة لاجتياح القرم سنة (١٦٨٧). وكان التتار قد سبقوا، فأحرقوا كل السهول الخضراء التي تحولت الى قفار مرعبة. ووقف الجيش الروسي عاجزاً عن التحرك، واضطر أن يعود على أعقابه دون أن يشتبك في أية معركة. وانتشرت شائعة تقول ان (سامو لفتش) قد خان دولته، فتم تجريده من كل حقوقه المدنية، وأبعد منفياً الى سيبيريا. وعين (مازبا) في مكانه. وفي سنة (١٦٨٩) تجددت المحاولة، وانطلق الجيش الروسي بقيادة (كلستين ومازبا) غير أن نصيب هذه الحملة لم يكن أفضل من نصيب الحملة السابقة. ولم يكن فشل الحملتين ليمنع (صوفيا) من دخول موسكو في موكب النصر. ومع أن بطرس انتهرها لتتخلى عن تلك التظاهرات العقيمة، إلا أن ذلك ما زادها إلا عناداً وعتواً. وأخيراً، مشى موكب النصر برئاستها، وسار به رجال الاكليروس حاملين الايقونات المقدسة، ومن ورائهم عسكر القرم. وسمحت للقادة ـ الجنرالات ـ بتقبيل يدها. وأعطت كأساً من الشراب المسكر لكل القادة وكبار الموظفين.

ظهرت من خلال ذلك سياسة صوفيا الخارجية بصورتها الضعيفة والفاشلة. ووقعت على المعاهدة التي حملت اسم (معاهدة تشنسك) وبها تنازلت روسيا للصين عن مقاطعة (عامور) التي كان قد استولى عليها القوزاق. مما أكد تراجع روسيا أمام التتار.

لم يكن بطرس راضياً عن سلوك أخته ووصايتها واسلوب ادارتها، فترك موسكو، وذهب الى قرية (بريو برانجسيكو) للإقامة فيها واتخاذها قاعدة لنشاطاته. وكان ساعده أثناء ذلك يشتد يوماً بعد يوم، ويشب عن الطوق، ويكتسب المزيد من الخبرة والمعرفة.

وبدأت مواهبه العقلية في الظهور، وفضائله القيادية بالتفتح. الأمر الذي كان يشد اليه انصاره، ويزيدهم تعلقاً به، بقدر ما كان ذلك يغيظ اعداءه ويخيفهم. وكان ـ وهو لا زال صبياًـ يحب قرع الطبول واللعب بالسيوف والبنادق. وتعلم التاريخ عن طريق المطبوعات الملونة التي كانوا يحضرونها له من ألمانيا. وتعلم القراءة على يد (زوتوف). وكانت سيرة (ايفان الرهيب) في طليعة الأبطال الذين تعلم بطرس نهج حياتهم واساليبهم وطرائق تفكيرهم، ذلك لأن (بطرس) كان يحمل كثيراً من الصفات التي كانت لبطله (ايفان الرهيب). ولما كان بطرس ملولاً، لا يستطيع المثابرة طويلاً على القراءة والمطالعة، فقد كان (زوتوف) يحرص على أن يأخذ الكتاب منه، ليقرأ له سيرة أبيه وغيره من الملوك والأمراء الروسيين الذين قدموا للمملكة خدمات عظيمة وأعمالاً مجيدة ومنجزات ضخمة، وكان يتجنب في الوقت ذاته ذكر ما لا فائدة منه من سيرهم. وتعلم (بطرس) وهو لا زال صبياً أيضاًـ اللغات اللاتينية والجرمانية والهولاندية، علاوة على لغته الروسية. كان شغوفاً بالمطالعة، محباً للتعلم، يطمح لتمثيل دور (ايفان الرهيب) والسير على نهجه في الحكم والادارة، ويعتمد على نفسه في اتخاذ قراراته باكثر من اعتماده على آراء الآخرين وأفكارهم. ولم يكن تعلمه على نسق معينـ مبرمجـ وانما كان عشوائياً، الأمر الذي أغاظه فيما بعد. لقد أهملت تربيته نظير أيفان الرابع، ولكن ظروفه كانت أفضل من ظروفـ أيفانـ.كان يجول مع رفاقه في شوارع موسكو ليعيش حياة فيها كل ما يشين ويعيب. غير أن هذه الحياة كانت أفضل له من حياة القصر في تلك الفترة. ولعل الميل الى الاصلاح في روسيا قد تولد في نفسه منذ ذلك الوقت.

وجد (بطرس) بين رجال روسيا من تتوافر لهم الكفاءة العالية حتى يكونوا له أعواناً في الاصلاح. وتعرف أيضاً برجل سويسري (اسمه لافورت) وآخر انكليزي (اسمه غوردون) وثالث جرماني (اسمه تمرمان).فاتخذهم بطانة له، وعرف عن طريقهم الحضارة الغربية ومدنيتها. كما ضم في بلاطه(لاون نارتشكين) و (بوريس غوستين) الذي آلى على نفسه ألا يتملق (بطرس) أو يداهنه، وكذلك (اندراوس متفيف) الذي كان ذوقه أوروبياً محضاً، و (الغروكي) الذي رأى بطرس في منزله (الاسترلاب) لأول

مرة. وكان (بطرس) يجري مع رفاقه التمارين العسكرية، ويقسمهم الى فرق على النظام الاوروبي الحديث. فكان ذلك بذاراً لتنظيمه العسكري الجديد في المستقبل. وتعلم الهندسة، وإقامة الحصون، وتنظيم الدفاع عن المعاقل التي كان يبنيها، ويتمرن مع رفاقه عليها هجوماً ودفاعاً. وكانت تصيبه أحياناً خلال تلك التمارين الحربية جراحاً عِميقة وضربات مؤلمة. ورأى يوماً مركباً شراعياً انكليزياً، على مرفأ (يواسا) فاستدعى اليه (فرانز تمرمان) ليمرنه علي تسيير المراكب الشراعية، وقيادتها حتى عندما لا تكون الريح مضادة. ومع أن (بطرس) كان نظير أقرانه من أشراف موسكو، يخاف حتى من المرور على جسر فوق الماء، فقد صمم على أن يصبح ملاحاً ماهراً. ونجح في قيادة أول مركب في (يواسا) ثم في بحيرة (ياريسلافيل) حيث صنع له (براندت) الهولاندي اسطولاً كاملاً. وبالرغم من ذعر أمه ومقاومتها له، بل توسلاتها ومحاولاتها لاقناعه بالعدول عن ركوب الماء، فقد مضى (بطرس) في سبيله حتى أصبح نوتياً ماهراً، يخوض عباب اليم بلا خوف ولا وجل.

كان جلساء (صوفيا) يقولون عن (بطرس) لما يرونه فيه من التمرينات والاستعدادات، بأنه يملأ فراغ وقته بالتسلية. غير أن هذه الوسيلة لتسلية ـ الصبي ـ أصبحت سبب ضيق (صوفيا) ومصدر قلقها. وكان كل يوم يضاف الى عمر (بطرس) يزيده قوة وقدرة، ويقرب (صوفيا) من أبواب الدير الذي سيغلق عليها. وحاولت (صوفيا) تغيير أسلوبها في معاملة أخيها (بطرس) فحاولت التظاهر بالدعة والرفق واللين، غير أن ذلك لم يجدها نفعاً. ولاحظت أن خالتها والدة بطرس (ناثاليا) قد زادت اعتداداً بنفسها. واضطربت (صوفيا). وأسفت مع (غالتزين) على أنهما لم يغتنما فرصة الثورة في سنة (١٦٨٢) للتخلص من بطرس وأمه. وقد قال (تشامكوفتي) رئيس (الاسترلتش) والذي يعود إلى أصل وضيع، رفعته (صوفيا) الى مرتبة لم يكن يحلم بها، فصار مطواعاً لها ومخلصاً في خدمتها الى ابعد الحدود، قال لها بصوتٍ مسموع لما تحقق أنه سيسقط لا محالة مع سقوط مولاته: (خير لنا أن نقتل القيصرة من أن نقتل بسببها). ولم يبق أمام صوفيا سبيل للنجاة إلا بامتلاك العرش والتخلص من أخيها بطرس. غير أنها لم تعد تمتلك الوسيلة التي تساعدها على بلوغ هذا الهدف. لقد ناصرها جند (الاسترلتش)

في البداية، غير أنهم رأوا ما حل بهم، وما نزل بساحتهم ، نتيجة دعمهم لها. وتذكروا كيف قطعت رؤوس زعمائهم وقادتهم أمام (صوفيا) دون أن تعمل على حمايتهم ، أو ترفع العقاب عنهم. ولما رأت (صوفيا) أن مركزها بات حرجاً جداً ، لجأت من جديد الى (دير ديفتشي). ومنه أرسلت مندوبيها في محاولة لاستمالة جند (الاسترلتش) واستثارتهم لحمايتها وخوض الحرب من أجلها. غير أن محاولتها لم تلق الاستجابة التي كانت تتوقعها. ولم يتمكن (تشامكوفتي) من جمع أربعمائة جندي منهم في الكريملين الا بعد جهد وعناء كبيرين. وبدأ الصراع الحاسم بين (موسكو صوفيا) و (بريو برانجسيكو بطرس) القرية الصغيرة التي اختارها مركزاً لإقامته وقاعدة لنشاطه.

عرف (بطرس) بأمر الفتنة التي تدبرها اخته (صوفيا) عن طريق اثنين من رجال (الاسترلتش) فمضى بسرعة الى (دير تريوستا) وكله تصميم على وضع حد حاسم لازدواجية السلطة، لقد حان الوقت ليعرف الجميع من هو القيصر الحقيقي. واجتمع الرجال حول قائدهم بطرس، وانضم اليه أنصاره وأمه والموظفون الاجانب وفرقة من الاسترلتش أيضاً، بالاضافة الى البطريرك الذي كان يعضده. وشعر أعوان (صوفيا) بضعفهم، وبالموقف الحرج الذي باتوا يواجهونه. وعرفوا أن أيام عزهم قد مضت. وقام رجال الاسترلتش فطلبوا الى صوفيا تسليم (تشامكوفتي) لوضعه تحت تصرف (القيصر بطرس). وأسرعت صوفيا متوسلة الى أخيها بطرس أن يتوسط في أمره، ويعمل على حمايته. غير أن رجال القيصر وضعوه تحت التعذيب والاستجواب، حتى اعترف بمؤامرته ضد القيصر بطرس، فقطعوا رأسه. أما (متفيف) فاكتفوا بضربه وتأديبه، لأجل هرطقته، ولكنهم لما علموا أنه كان يعتزم تنصيب نفسه بطريركاً، وأنه ينوي الزواج من (صوفيا) عادوا فسجنوه مع ساحرين كان محكوماً عليهما بالحرق أحياء ضمن قفص، ثم قطعوا رأسه. وتقرر مصادرة املاك (الامير فاسيلي غالتزين) وتجريده من نفوذه وابعاده منفياً الى (بوستزرسك). كما تم الحجر على (صوفيا) كأسيرة في (دير ديفتشي). ورضي (ايفان) ان يكون مساعداً لأخيه. غير أن بطرس رفض هذا الاقتراح، وصمم على استلام السلطة وحده بدون شريك أو منازع. لقد وضع بطرس قدمه على طريق المستقبل، ولن يتراجع.

٣- بواكير النصر في (آزوف)

أصبح بطرس مسيطراً على الموقف في سنة ١٦٨٩، ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره. فكان أول عمل أقدم عليه- بعد أن استرد حريته الكاملة للعمل- أن توجه بالسفر الى (اركنجل). ولم يمنعه من ذلك توسلات أمه والحاحها عليه بعدم الذهاب، خوفاً عليه من ركوب البحر. ولم يكن بطرس قد عرف البحر، وكان يأكل مع التجار وموظفي الأساطيل البحرية الأجانب، فاستنشق هواء القرَب وطاب له، فأنشأ مرافىء بحرية، وبنى سفناً وصادم الأمواج المتلاطمة بذلك المحيط المجهول. وكاد يغرق في أحدى العواصف التي لو صادمت غيره لأقلع عن ركوب البحر مدى العمر. ولما كان بحر الشمال متجمداً في تلك الفترة، فقد فكر بطرس بضرورة امتلاك منفذ بحري على بحر البلطيق أو البحر الأسود. وكان الأول تحت سيطرة الاسوجيين (السويديين) أما الثاني فكان تحت حكم العثمانيين. أما بحر قزوين فكان حوضاً من بلاد فارس. ووجد بطرس نفسه أمام مشكلة اختيار الدولة التي يجب البدء بالهجوم عليها أولاً. وكان بين حكومته وبين بولونيا والنمسا معاهدة تمنع عليه البدء بالحرب ضدهما، هذا علاوة على الظروف السياسية والدينية التي كانت تقيد حرية عمله. فتوجه بتفكيره نحو البحر الأسود، وأخذ في الاعداد لحرب المسلمين العثمانيين على أمل انتزاع القسطنطينية منهم، وتحقيق ما عجز اسلافه عن تحقيقه. ونجح بطرس في إثارة المشاعر الدينية لشعبه، وتجريد حملة صليبية لقتال الكفار (المسلمين). وتولى قيادة هذه الحملة ثلاثة قواد (غولفين وغوردون ولافورت) وحددت مهمتها بالاستيلاء على آزوف- والتحرك عن طريق نهر الدون- غير أن هذه الحملة باءت بالفشل نظراً لعدم توافر اسطول بحري روسي يدعم الهجوم البري، ونظراً لعدم توافر خبرة قتالية كافية للجيش الجديد، مما اضطر بطرس الى رفع الحصار عن آزوف (في سنة ١٦٩٥).

في هذه الفترة وقع حدثان كان لهما تأثيرهما على بطرس، الأول وفاة والدته ناتاليا سنة (١٦٩٤) والثانية وفاة أخيه ومنافسه ايفان (في سنة ١٦٩٦). وخضع لمستشاره (غالتزين) الذي اقترح عليه تغطية هزيمته باقامة مهرجانات في موسكو، ودخولها في

موكب الظافرين. وقد نفذ بطرس ذلك، غير أنه لم يكن مقتنعاً بجدوى (التظاهر) فصمم على الانتقام لهزيمته وأرسل يجمع الخبرات من البلاد الأجنبية. فجاءه رجال المدفعية من هولاندا والنمسا، وأقبل عليه المهندسون من بروسيا، وانضم اليه الاميرال (ليا) من فينيسيا. وانصرف بطرس لبناء اسطول بحري، وتمكن خلال فترة وجيزة من بناء (٢٢) سفينة نقل و (١٠٠) روث- طوافة - و (١٧٠٠) سفينة. وحول كل الموانىء الصغيرة على نهر (الدون) الى مرافىء كبيرة حشد فيها (٢٦) ألف عامل من كل انحاء المملكة. وما كان احتراق بعض المرافىء، وانحراف صحته، ليحولا دون العمل بسرعة ونشاط، أو يقللا من همته ويضعفا من أمله بالنجاح. وقد أثمرت الجهود المبذولة، فتم انزال الأسطول الروسي الأول الى مياه نهر الدون. وهاجم بطرس (آزوف) هجوماً مباغتاً بقوة اسطوله فاستسلمت له المدينة فوراً. فلما بلغت الاخبار موسكو، طرب لها الشعب الروسي كثيراً، بينما شعرت اوروبا بخطر هذه القوة المتعاظمة، فلم تبتهج كثيراً لهذا النصر. في حين استقبلت وارسو انباء النصر (السلافي) بالفرحة، فانطلقت جماهير الشعب الى شوارع المدن وساحاتها وهي تهتف بملء حناجرها (عاش القيصر).

رجع بطرس الى موسكو في هذه المرة وقد انتصر انتصاراً حقيقياً - لا إعلامياً- وأقام له أهل موسكو اقواس النصر، ودخل يتقدم الجند الى المدينة بين هتاف الشعب وأهازيجه. كما أركب الأميرالان (لافورت وستين) مركبة مزينة، بينما مشى بطرس وراءهما برتبة قبطان، أما جنسن(*) فكان محكوماً عليه بالاعدام شنقاً، ولهذا مشى مع الأسرى.

عمل بطرس على استثمار هذا النصر، فحصل من مجلس (الدوما) على الموافقة بنقل ثلاثة آلاف عائلة روسية الى آزوف واسكانهم فيها، بالإضافة الى عدد كبير من

(*) جنسن- هو مهندس جرماني، دخل في خدمة بطرس، غير أن هذا أساء معاملته، ولهذا فعندما توجه بحملته الى آزوف سنة ١٦٩٥، انضم جنسن الى الحامية العثمانية، وكان ذلك سبباً رئيسياً في فشل الحملة الروسية. وعندما جدد بطرس هجومه في السنة التالية (١٦٩٦) واستخدم الاسطول الحربي في هجومه المباغت، واستسلمت له (آزوف) وقع المهندس جنسن أسيراً في قبضة بطرس.

المواطنين الروس الذين اظهروا رغبة في الانتقال الى آزوف والاقامة فيها، وبالاضافة أيضاً الى عدد من جنود (الاسترلتش).

وأفاد بطرس أيضاً من نصره في آزوف لدعم قدرته البحرية، وبدأ بفرض ضريبة خاصة بالاسطول، وشملت هذه الضريبة حتى البطاركة والكنائس والبيع، وكان هدفه من ذلك زيادة حجم الاسطول ليصل الى معدل سفينة مقابل كل ثمانية آلاف مواطن روسي. وأقبل التجار ورجال الدولة فقدموا طوعاً مساعداتهم لدعم (الاسطول الوليد) وتمكينه من الانتصار على الكفار (المسلمين). واقترحوا تطوير القتال ليشمل المنطقة ما بين نهر (الدون) ونهر (الفولغا). كما أرسلوا الى كل انحاء اوروبا يستأجرون مهرة العمال والبحارة. وشكلوا بعثة تضم (٥٠) شاباً ـ من أولاد الأشراف ـ للتوجه الى فينيسيا وانكلترا وغيرهما من أجل تعلم (الفن البحري) و (بناء السفن). ولم يكتف بطرس بذلك. بل أظهر رغبته في أن يتعلم هو نفسه كل ما هو ضروري لخدمة بلاده. وفي سنة ١٦٩٧، أرسل الجنرالين (غلوفين وفوسنتسين) الى أوروبا، باسم سفيري القيصر العظيمين، ومعهما (٢٧) روسياً من أولاد الأشراف والبحارة والتراجمة والتجار والمهرجين (الممثلين) ونحو ذلك، وبينهم، كان يسافر شاب يحمل اسم (بطرس ميخاليف)، والذي لم يكن إلا القيصر ذاته. وقد احتمل ـ بنتيجة تنكره ـ بعض التوبيخات القاسية من (حاكم ريغا)، غير أنه احتمل ما لحق به من اهانات، وأرجأ تسوية حسابها الى المستقبل(*). وفي (كوغنسبرغ) منح العقيد (الكولونيل) البروسي لبطرس

(*) جاء في (تاريخ بطرس الكبير ـ نخلة قلفاط) ص ٨٣ ما يلي: «اقام بطرس ـ بعد استيلائه على آزوف ـ حامية بحرية في البحر الاسود تضم (٢٢) بارجة تحمل كل منها من (٣٠ ـ ٥٠) مدفعاً. و (٩) بوارج كبيرة حمولة الواحدة (٦٠) مدفعاً» وفي ص ٨٤: «وضع بطرس أول وسام، ولم يكن في الدولة الروسية قبل ذلك الوقت. وكتب على احدى صفحتيه ـ بطرس الأول امبراطور روسيا ـ وعلى الصفحة الثانية ـ آزوف. منصور بالنيران والمياه». وفي ص ٨٦: «لما قوي مراس بطرس الكبير، فكر بمبارحة البلاد. ووجد من نفسه أنه لا يليق به أن يكون بصفته الملكية، فجعل نفسه من اتباع ثلاثة من قواد بلاده، وهكذا كان سفره متخفياً بصفة خادم، لا يظهر قط أنه صاحب البلاد الروسية، والقواد المذكورون هم: (الجنرال لوفورت والفيكونت الكسيس غليون وكيل الجيش العام وحاكم سيبيريا، ودونتسين دياك كاتب سر الملك) وكان مع كل قائد (٤) كتاب واثنا عشر مذيراً وخمسون نفراً من الضباط. وجملتهم مائتا رجل بينهم بطرس الذي اصطحب معه خادماً ومهرجاً وفراشاً بسيطاً حتى لا يعرف بينهم».

شهادة (مدرب مدفعية) بدرجة تفوق. كما استقبلت البعثة الروسية بالترحاب في بلاط (كورلاند) و (هانوفر) و (برادنبرغ). وكتبت عنه (صوفيا شارلوت) من هانوفر- وقد صارت ملكة بروسيا فيما بعد- وكان عمره عندئذٍ سبعاً وعشرين سنة، فقالت: «**بأن دهشتها بشدة ذكائه وأجوبته المحكمة والسريعة، لم تكن أقل من دهشتها من خشونته وسوء تصرفه على مائدة الطعام. وأنه كان جامعاً بين سوء التربية وعلو الهمة الخ...**».

ترك بطرس سفارته على الطريق، وتقدمهم مسرعاً إلى أن وصل الى مدينة (ساردام). ونام ليلة في بيت حداد، وكان مرتدياً ثوباً كأحد العمال الدانمركيين، ويحمل فأساً مثلهم. وفي تلك الليلة اشترى مركباً، وشرب مع صاحبه كأساً من الجعة على العا دة الجارية. وزار معامل الحديد والحبال والمطاحن والمعاصر ومعامل الورق والاسلاك المعدنية. وفي كل منها مارس العمل بيديه واصطنع في معمل للورق قليلاً منه بيده. ورغماً من التقاليد المرعية، فانه لم يمكث في (ساردام) اكثر من ثمانية أيام. وفي (امستردام) لم تكن اعماله أقل غرابة مما ذكر، فما استراح هو، ولا ترك للآخرين فرصة للراحة من عناء العمل الدائم. وقام بفحص كل المختبرات ومراكز الابحاث، واستأجر عمالاً وصناعاً وموظفين ومهندسين، كما اشترى مخططات صنع السفن وحقوق انتاجها، وأمكن له اقامة روابط الصداقة المتينة مع عدد من الهولانديين، فكان يزور بيوتهم ومصانعهم، ويحاول الافادة من كل ما يتعلمه.

لم ينس (بطرس) أثناء جولته الهدف الذي ترك بلاده من أجله. فكتب الى البطريرك ادريان ما يلي: «**اننا نعمل على اتقان فن البحرية، ومتى نلنا أمنيتنا، نعود الى روسيا لننتصر على اعداء المسيح، ونطلق برحمته اخوتنا المستعبدين من غير المسيحيين. ونعيد اليهم حريتهم. وهذا ما سأعمل له حتى آخر يوم من حياتي**».

اغتاظ بطرس لأنه لم يتقدم كثيراً في مجال بناء السفن. غير أن العادة التي كانت متبعة في الصناعة الهولاندية تعتمد على مهارة العامل نفسه وكفاءته باكثر من اعتمادها على (المعلم). وعلم بطرس عن طريق أحد البحارة، أن التعليم في انكلترا يتم على

أسس ثابتة وقواعد مبرمجة، مما يسمح للطالب باتقان الصناعة خلال فترة أربعة أشهر فقط، فأسرع بطرس بالتوجه الى لندن، وأمضى فيها فترة ثلاثة أشهر، وزار بعض المدن المجاورة. واستأجر عدداً من المهندسين في بناء السفن والعمال الاختصاصيين في صناعة الحديد ورجال المدفعية، وسواهم، ثم رجع الى (هولاندا) وصادفه اعصار في البحر، حتى تعرضت سفينته للخطر، واضطرب الذين معه، وخافوا عليه من الموت غرقاً. فالتفت هو اليهم وقال: «**هل سمعتم أن أحد قياصرة الروس قد مات غرقاً في بحر الشمال**». ومع أنه كان منصرفاً بكليته الى دراسة (الصناعة) فانه لم ينس مجال العمل السياسي. فزار (وليم الثالث) وتباحث معه بشأن المستقبل. غير أنه لم يزر فرنسا نظراً لأن مليكها (لويس الرابع عشر) لم يكن راضياً عن سياسة بطرس الخارجية، ولا سيما اشتباكه بحروب مع الاتراك العثمانيين. ثم ذهب الى (فيينا) لدراسة فن الحرب ونظام الجندية، واستطاع (ليوبولد) اقناع بطرس بعدم التعرض للعثمانيين، حيث كان يطمح الى فتح كريت. واذ كان على اهبة السفر الى (فينيسيا) وصلته أخبار مثيرة من موسكو حملته على تغيير مخططاته.

لقد بدأ (بطرس) حكمه بمحاولات الاصلاح. وظهر واضحاً أن هذه المحاولات ستنال من مراكز القوى التقليدية وأولها (الكنيسة) ورجال القوات الخاصة (الاسترلتش). ولهذا فقد انطلق القسس لنشر الشائعات القائلة: «بأن بطرس ضد المسيح» وقالوا بأنهم كانوا قد تنبؤوا: «بأنه سيولد من زانية» وكان بطرس ابن الكسيس من امرأته الثانية، وعلى هذا فقد أشاروا الى أن أمه «ناثاليا» هي (العذراء الكاذبة) وهي المقصودة بالنبوءات.

واتخذوا من كثرة الضرائب على الشعب دليلاً على حلول الوقت المذكور. وزعم آخرون: أن بطرس ليس ابن الكسيس، بدليل ما يظهره من الميل الى الأزياء الجرمانية واللغات الأجنبية. وأن بطرس هو ابن (لافورت) من (جنيف) وأن أباه كان طبيباً جرمانياً. الى غير ذلك من الأقاويل التي عبروا فيها عن حقدهم ضد (بطرس) وخشيتهم من محاولاته الاصلاحية. وزاد الأمر سوءاً بذهاب بطرس الى الغرب، إذ اعتبر أعداؤه

ذلك تأكيداً على صحة الافتراءات. ومما كانوا يشيعونه في وسط العامة قولهم: «**هل سمعتم قط أن قيصراً يترك روسيا المقدسة، ليتجول في البلاد الأجنبية؟ وماذا عساه سيحل به عند تلك الشعوب؟**» وراحوا يصورون ما يتعرض له من مهانة في بلاد الاجانب. وزاد الأمر سوءاً أيضاً بوصول النقمة الى جيش موسكو، وبصورة خاصة في وسط جند (الاسترلتش) الذين حملوا على ترك وطنهم وأهلهم للاقامة في حاميات (آزوف). وقد ارسلوا بعد ذلك- وفي غياب (بطرس) من آزوف الى بولندا، فتذمروا من أوضاعهم، ورفعوا شكاواهم، وألقوا بمسؤولية ابعادهم لمدة ثلاث سنوات- وحرمانهم من أهلهم وأقاربهم- على عاتق الأشراف. ولما عاد بعض جند (الاسترلتش) الى موسكو، تم ابعادهم بالقوة عن العاصمة، باعتبار أن وجودهم فيها مما يزيد الثورة ضراماً، فحملوا معهم الى فرقتهم رسالة من (صوفيا) تقول: «**أنتم تتألمون الآن، ولكن ما تتعرضون له هو مجرد بداية فقط، وسيصير حالكم إلى ما هو اكثر سوءاً، فماذا تنتظرون وقد انقطعت الأخبار عن القيصر؟**». وأشيع بين الجند: أن القيصر مات بيد الأجانب، وبأن الأشراف ينوون قتل ابنه الكسيس، وأنه يجب عليهم أن يزحفوا على موسكو لقتل الأشرف. وثارت اربع فرق من (الاسترلتش) وتركوا مراكزهم ومضوا في سبيلهم. فتسابق القائدان- الجنرالان- (ستيبن وغوردون) بجيشهما النظامي وأدركاهم عند نهر (ايسكر) وطلبا إليهم العودة الى مراكزهم. فاجاب (الاسترلتش) بعريضة شرحوا بها سوء حالتهم، وما يتعرضون له من الظلم والاضطهاد، وما يعانونه من انكار لحقوقهم بعد أن مات كثيرون منهم في(آزوف) وآخرون من شدة التعب وقلة المواد التموينية - الجوع- الى غير ذلك. وكانت (موسكو) في هذا الوقت، نهباً لكل انواع الشغب والاضطرابات، لا سيما بعد أن أدخل اليها الأجانب عادة (حلق اللحى) و (التدخين) وشاع بأنهم قريباً سيمتلكونها.

استطاع جند (الاسترلتش) الوصول الى موسكو، والانضمام الى جموع الثائرين. وصمم القائد (رومودا نوفسكي) على ابادتهم، دون أن يعرف أحد السبب، إذ كان انطلاق بعض طلقات المدافع كافياً لتبديد شمل الثائرين وتمزيقهم. وألقي القبض على كثيرين منهم، وحكم عليهم بعقوبات متنوعة.

وصلت أخبار هذه الاحداث الى (بطرس). فغادر (جنيف) على عجل. وعندما وصل عاصمته، تبين له أن قادته- جنرالاته- قد عالجوا الأزمة بالكثير من التهاون والتساهل. وظهر غضبه بصورة خاصة ضد (الاسترلتش)- جيش صوفيا- والذين ما زالوا يقاومون باستمرار جيشه النظامي. لقد حانت الفرصة للانتقام منهم والثأر لما قاموا به عند هجومهم على الكريملين، وقتلهم لأقارب أمه، وما أثاروه من اضطراب في (دير تريوستا) وما نفذوه من مؤامرات تسببت في تأخير سفره الى اوروبا. واراد الافادة من هذه الفرصة أيضاً لسحق أعدائه، وإبادة كل من يقاوم مشاريعه الموصوفة (بالاصلاحية). واذا كانت اللحى الطويلة سبباً في اثارة الاضطراب، فان نزعها أولى وأفضل. **وهكذا أصدر أمره يوم ٢٦ - آب- أغسطس- الى كل رجال بلاطه، أن يحلقوا لحاهم. وقام هو بنفسه بحلق لحى عدد كبير من أشراف دولته. وقد حاول البطريرك (أدريان) التخفيف من غضب القيصر وتهدئة ثائرته، فقدم له أيقونة (العذراء) العجيبة. فما كان من القيصر بطرس إلا أن أجابه بغضب: «لماذا أخرجت الأيقونة المقدسة من مكانها. أرجعها الى مقرها حالاً. واعلم انني اكرم الله والسيدة كما تكرمها أنت. واعلم أيضاً أن من واجباتي المحافظة على الشعب وابادة مثيري الشغب والمحرضين على الفتن».**

أحضر (بطرس) الى البيت الأحمر (في يوم ٣٠ تشرين الأول - أكتوبر- ١٧٠٥) مجموعة من المعتقلين، بلغ عددهم (٢٣٠) سجيناً، وهم مكتوفي الأيدي، وكانت تتبعهم جموع نسائهم وأولادهم، وهم يندبون وينتحبون. فقرأ (بطرس) عليهم الحكم بالاعدام، وذبحوا عن آخرهم. ثم أحضرت مجموعة ثانية، ولحق أفرادها بالمجموعة الأولى. ولم يمض اكثر من أسبوع حتى وصل عدد الذين اعدموا (الف) قتيل تقريباً، أعدموا بطرائق مختلفة. ولم يسمح (بطرس) بدفن جثثهم، فبقيت معلقة في أماكن مختلفة مدة سبعة أشهر، عبرة وتذكرة لغيرهم ممن يميلون الى الثورة والعصيان. وكان قادة (الاسترلتش) أثناء ذلك كله، على اتصال مستمر وسري بالاميرة (صوفيا) في معتقلها، وقد تم دفن اثنين من أنصارها وهما أحياء. وعلم القيصر بطرس بأن زوجته تعارض

اصلاحاته الجديدة، من حلق للذقون وسواها، فأمر بحلق شعر رأسها، وشعر رأس صوفيا، وأغلق عليهما أبواب الدير. وأصبح باستطاعة (بطرس) بعد أن سيطر على الموقف في موسكو، أن يوجه جيشاً للقضاء على ثورة (استراخان) حيث كانت جماهير الثائرين قد عملت على قتل جنود الحكومة، واثارت الاضطراب وهددت الأمن.

ولم يكن (الاسترلتش) وحدهم الذين اثاروا الاضطراب في روسيا الجديدة، وقاوموا اصلاحات بطرس فيها، بل كان هناك عنصر آخر للشغب هو عنصر (القوزاق) الذي عمل طويلاً على دعم روسيا في حروبها مع البربر، فكان كالدرع الواقي لحماية البلاد. وفي سنة ١٧٠٦ ثارت ثائرة القوزاق على الحكومة القيصرية- في منطقة نهر الدون. وكان السبب في ذلك هو منع الحكومة لهم من حماية الذين يهربون اليهم من العبيد الآبقين، أو من الذين يهربون من دفع الجزية. فقاموا على الحامية الروسية. وقتلوا الأمير (جورج دولغروكي) وهزموا القوات الروسية في (بسكوفتا) وسيطروا على (تشاركاسك) وتهددوا (آزوف). غير أنهم كانوا يظهرون احترامهم للقيصر في كل مكان. وينحون باللائمة على أولياء الأمور الذين كانوا ـ على حد زعمهم- يتصرفون بمبادأتهم ، وليس بموجب أوامر القيصر وتعليماته.

وفي النهاية ، هاجمهم فاسيلي (أخوجورج دولفروكي) وشتت شملهم، وانتصر عليهم. فقتل (القوزاق) أحد زعمائهم من مثيري الثورة بيدهم. وهرب آخر ـ ومعه بعض رجاله ـ الى كوبان. وأقاموا رئيساً على القوزاق (يوكرين) الذي كان شديد الاخلاص للقيصر، والذي سلمه كل من كان يقاومه أو يريد به سوءاً.

٤ـ الصراع مع السويد (حرب الشمال)

ضمن بطرس الاكبر منفذاً الى المياه الدافئة عندما احتل حصناً على بحر آزوف[٣٢] غير أنه لم يكن له منفذ الى الغرب ـ إلا أذا استطاع الوصول الى (بحر البلطيق)[٣٣] وعند ذلك يمكن له تحويل روسيا الى دولة اوروبية . وكان بحر البلطيق في تلك الفترة يخص دولة السويد (اسوج) التي كانت تضم اليها البلاد التي اطلق عليها (بلاد البلطيق)[٣٤] مما تسبب في تسمية بحر البلطيق باسم (المتوسط السويدي ـ الاسوجي) وكان لزاماً على بطرس الاكبر ان يخترق الاقاليم السويدية حتى يضمن الوصول الى نافذة تطل به على البحر . وبات (بطرس) يتحين الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافه .

وجاءت الأحداث الداخلية في مملكة السويد مناسبة لما كان يتطلع اليه بطرس الاكبر، إذ كان صراع الطبقة الارستقراطية مع البلاط الملكي السويدي قد بلغ مرحلة حادة، لا سيما بعد أن أعلن الملك شارل الحادي عشر الحكم المطلق سنة (١٦٨٠) وفرض على أشراف دولته أن يردوا إلى العرش كل الأملاك المستغلة من قبلهم منذ سنة (١٦٠٩) . وثارت ثائرة الطبقة الارستقراطية، وكان اكثرهم عناداً وتطرفاً ـ أشراف (ليفونيا) ـ[٣٥] الذين اختاروا من بينهم رجلاً عرف بقوة الحجة والجرأة ـ اسمه جون

---

(٣٢) آزوف: (AZOV ou AZOF) خليج على البحر الاسود. ويطلق عليه ايضاً اسم (بحر زاباش: MER DE ZABACHE) يصب فيه نهر الدون. ويقع على الحدود الجنوبية لروسيا (الاتحاد السوفييتي).

(٣٣) بحر البلطيق: (MER BALTIQUE) بحر يشكله المحيط الأطلسي ، وهو قليل العمق بصورة عامة، وقليل الملوحة، وقليل المد والجزر، ويتعرض للتجلد، يتصل ببحر الشمال ويشكل بين السويد وفنلندا خليج (بوتني (BOTNIE).وتقع على سواحله حالياً دول فنلندا والاتحاد السوفييتي وبولونيا والمانيا والدانمرك والسويد.

(٣٤) بلاد البلطيق: (PAYS - BALTES) اسم اطلق على الأقاليم المتاخمة لشرق بحر البلطيق: استونيا وليتوانيا وليتونيا. والتي كانت خاضعة للفرسان التيوتون من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، ثم ضمتها السويد اليها، والحقتها روسيا بعد ذلك بحدود بلادها. ثم استغلت في الفترة ما بين الحربين العالميتين، وأصبحت بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريات سوفييتية

(٣٥) ليفونيا : (LIVONIE) اقليم يقع على بحر البلطيق، عاصمته ريغا: (RIGA) وهو تابع اليوم للاتحاد السوفييتي ومقسم بين ليتونيا واستونيا.

باسكولْ- فلما مثل بحضرة الملك، اعترض عليه باسم شعب ليفونيا بلهجة أساءته وحاشيته جداً. فأمر الملك بالقبض عليه ومحاكمته أمام مجلس عسكري، وحكم عليه بالموت، فهرب (باسكول) ومضى يحرض كل مراكز القوى ضده وضد ابنه (شارل الثاني عشر). واتصل باسكول بكل من (اوغسطس السكسوني). وملك بولونيا، وعرض عليهما، مخططاً تقوم بموجبه كل الدول المجاورة للسويد بالهجوم عليها في وقت واحد، وتعمل على تمزيقها، فتأخذ منها بولونيا كلاً من (ليفونيا) و (أستونيا). بينما تقتطع منها روسيا اقاليم (انغريا)[٣٦] و (كارليسا). ويبقى على الدانمارك الهجوم على (هولشتين)[٣٧] واقتطاعها باعتبار أنها كانت خاضعة لحكم ابن حمي (شارل الثاني عشر)[٣٨]. ووجد بطرس الاكبر في اقتراح (باسكول) حلاً للمشكلة التي يجابهها. وبدأت بذلك حرب الشمال (١٧٠٠- ١٧٢١) والتي استنفدت كل جهود الدولة الروسية. إذ تطلب الموقف الداخلي والخارجي بناء جيش نظامي قوي وتنظيم اسطول حربي كبير. ولم يعد الجيش الروسي المكون من أفواج الرماة والخيالة المحليين يتجاوب والحاجات المتزايدة للدولة الروسية، وكان عليه أن يفسح المجال للتنظيمات العسكرية الجديدة. ولقد استمرت الاستعدادات لبناء الجيش النظامي في الدولة الروسية طوال الفترة من سنة ١٦٩٠ الى سنة ١٦٩٩ . ففي هذه الفترة تم تشكيل الافواج النظامية الاولى التي تابعت تطورها طوال حرب الشمال. ووقف (بطرس الأكبر) على رأس الدولة الروسية كرجل حكومي- رجل دولة- وكقائد عسكري- من الطراز الأول. فعمل

---

(٣٦) انغريا : (INGRIE) اقليم قديم في فنلندا، أصبح في سنة ١٨٠٨ تابعاً لحكومة روسيا.

(٣٧) هولشتين: (HOLSTEIN) كانت قديماً امارة (دوقية) وتحولت الى دولة دخلت في اتحاد الامارات الجرمانية. وألحقت بدولة بروسيا سنة (١٨٦٤) ومعها- في الوقت ذاته دولة سليسفيغ (SLESVIG) وهما اليوم من أقاليم المانيا الغربية.

(٣٨) شارل الثاني عشر : (CHARLES XII) ابن شارل الحادي عشر، ولد في استوكهولم (١٦٨٢- ١٧١٨) بدأ عهده بالانتصار على ملك الدانمارك في كوبنهاغن سنة (١٧٠٠) وانتصر بعد ذلك على بطرس الاول في نارفا وعلى اوغست الثاني ملك بولونيا في كيسو (KISSOW) سنة (١٧٠٣). ثم وجه بعد ذلك جيشه ضد روسيا. غير انه لم يتمكن من الانتصار على بطرس الكبير في معركة بولتافا سنة (١٧٠٩). فالتجأ الى تركيا حيث دعمه السلطان احمد الثالث. وعاد الى بلاده سنة (١٧١٥) لينفذ مجموعة من المشاريع الجريئة. غير انه قتل بطلق ناري اثناء حصار فريدريك شالد (هالدن). (HALDEN) FREDRIKSHALD

على تجهيز جيشه بأحدث الأسلحة التي كانت معروفة في عصره. كما وضع اسس الاستراتيجية العليا وقواعد العمل التعبوي- التكتيكي- في جيشه النظامي. ويذكر أن (بطرس الأكبر) قد ألف ووضع مجموعة من الانظمة والنظريات العسكرية التي تبلورت من بعد فكان من ابرزها (نظام القتال) الذي صدر سنة ١٧١٦ (والذي دخل تاريخ فن الحرب باسم (نظام قتال بطرس العظيم).

حاربت روسيا في (حرب الشمال) مع حليفتها بولونيا. أما الدانمارك التي سبق أن انضمت الى الحلف الروسي، فانها خرجت منه منذ البداية. وكان الحدثان الهامان في **الدور الأول للحرب** هما موقعة (نارفا)(٣٩) التي انتهت بانتصار السويد. ثم الاعمال الهجومية للجيش الروسي الذي استطاع تحرير بعض المدن على شاطىء الخليج الفنلندي. وفي العام (١٧٠٣) وعلى مصب نهر النيفا، بدىء ببناء مدينة بيترسبورغ، وبذلك استطاعت روسيا الحصول على منفذ الى بحر البلطيق.

وكان الشيء الهام في **الدور الثاني للحرب** (١٧٠٦ - ١٧٠٩) هو هجوم السويد في عمق روسيا، ومن ثم تحطيم جيشها في معركة (بولتافا)(٤٠) **وفي الدور الثالث للحرب** (١٧١٠ -١٧٢١) حصلت القوات الروسية على النصر في بحر البلطيق وفنلندا. وانتقلت الاعمال القتالية الى الأراضي السويدية. وانتهت بانتصار روسيا النهائي.

كانت حرب الشمال حرباً طويلة وقاسية، وكانت السويد قبل الحرب تعتبر أقوى دولة في أوروبا، إذ كانت تملك جيشاً قوياً مدرباً وأسطولاً بحرياً كبيراً. وكانت قواها البرية تصل خلال الحرب أحياناً الى (١٥٠) ألف رجل. وكان تكتيك الجيش السويدي هو التكتيك الخطي. وكانت المشاة السويدية خلال المعركة تتوزع بالتساوي على خطين أو ثلاثة خطوط. وكانت بعد الاشتباك الناري تنطلق منقضة بالحراب، أما الخيالة فكانت تقوم بالصدمة مستخدمة السلاح الأبيض. وكانت استراتيجية القوات السويدية

---

(٣٩) نارفا: (NARVA) مدينة حصينة في استونيا (ESTONIE) على الحدود الروسية ولها خليج متاخم لفنلندا.

(٤٠) بولتافا: (PULTAVA). مدينة روسية في اقليم (اوكرانيا) الى الغرب من خاركوف (KARKOV) وتقع على الضفة اليمنى لنهر (فورسكلا).

بقيادة الملك شارل الثاني عشر في حرب الشمال تقوم على أساس تدمير العدو على دفعات كما اعتمد الملك السويدي في البدء على اخراج الدانمارك ثم بولونيا من الحرب، ليوجه بعد ذلك كل جهده نحو روسيا.

تحددت استراتيجية الجيش الروسي النظامي بسياسة الدولة التي كانت تخدم المصالح الحيوية لروسيا. وكانت الصفات الأساسية لهذه الاستراتيجية هي (الحسم) في تحقيق اهداف الحرب، و (المرونة) في اشكال الصراع المسلح وطرائقه، وكانت هذه الاستراتيجية موجهة لتدمير القوى البشرية للعدو، وليس تهديد خطوط مواصلاته. وقد شغلت المعركة والموقعة المكان البارز في هذه الاستراتيجية. ولم تعتبر المناورة على خطوط المواصلات العامل الحاسم لتحقيق النصر.

كان بطرس الكبير يناهض اسلوب النطاقات في خوض الحرب. وكان يركز قواه ولا يبعثرها، حاشداً إياها بمهارة فائقة على الاتجاه الحاسم. وبما أنه هو الذي وضع الأسَاس لاستراتيجيتي (الحسم) و (المرونة) فقد كان (الهجوم) و (الهجوم وحده) هو وسيلته لتطبيق اسسه الاستراتيجية، والتي كان يعبر عنها بقوله: (قاتل العدو في أرضه لا في أرضك). وتبعاً لذلك. قامت القيادة الروسية بدفع قواتها الى الحدود السويدية.

وقد استخدم الجيش الروسي في حربه مع الجيش السويدي اشكالاً استراتيجية عديدة كتدمير العدو على أقسام، وكالحرب الصغيرة التي كانت تعني نشاط بعض القوات على مؤخرة العدو وعلى خطوط مواصلاته. وخلال (حرب الشمال) تم التحضير للهجوم المضاد العام الذي نفذ في سنة (١٧٠٩) في (معركة بولتافا)

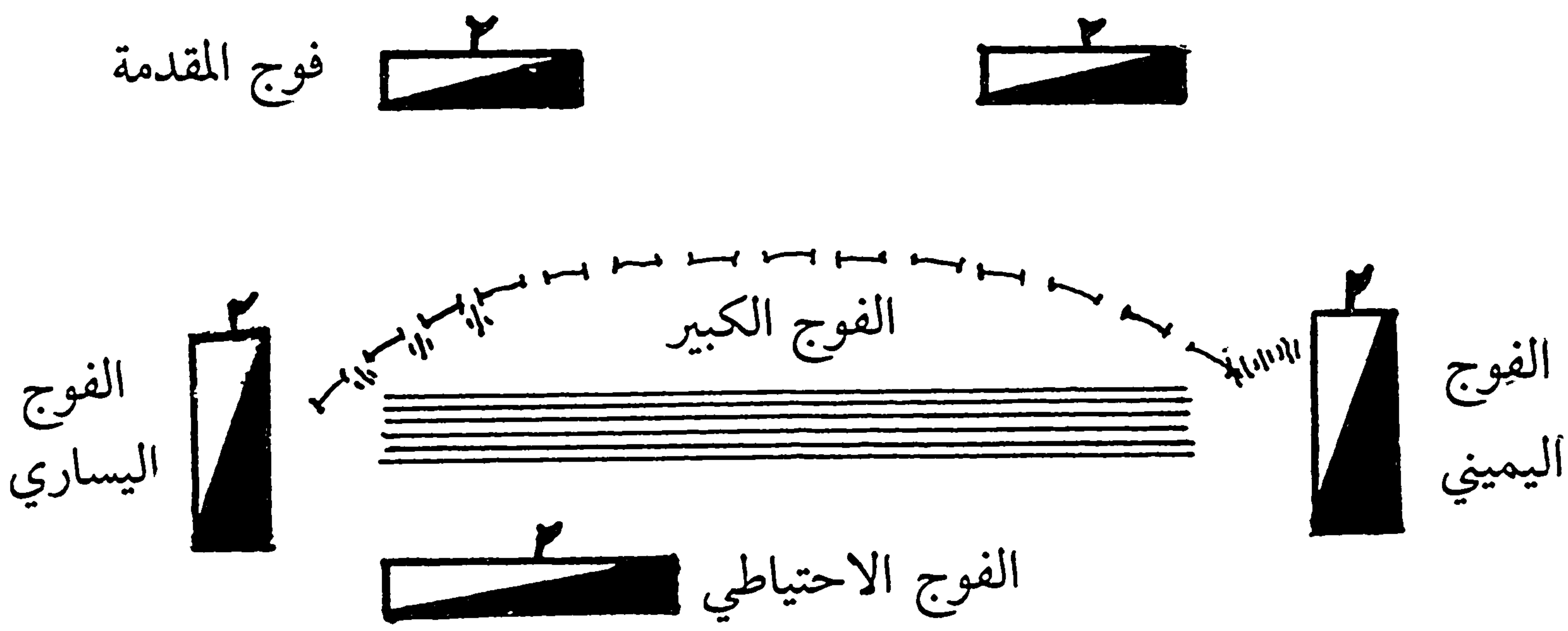
وكانت القوات القريبة من العدو تتمركز في المعسكرات، أما الأخرى البعيدة فكانت تتمركز في الأبنية. وكان التمركز داخل المعسكر يتم بشكل تكون معه القوات جاهزة للمعركة في أي ساعة. ولتموين القوات بما يلزمها من المواد كانت تنظم قواعد تموينية خاصة. كما اعتمد احياناً في التموين على المصادر المحلية في الأرض المحتلة. وكانت القوات تملك احتياط شهر من المؤن- على الغالب-.

كان التعاون بين القوات البرية وبين الاسطول يتم بشكل دقيق. وكانت الأعمال الحربية في البر كما هي في البحر تعتمد على اساس (الحسم). وللوصول الى هذا الهدف قام بطرس الكبير ببناء مجموعة من القواعد البحرية، ونظم الدفاع عنها بكفاءة عالية. وبهذا أصبحت شواطىء بحر البلطيق وكذلك مدخل الخليج الفنلندي محمية بشكل مضمون بالقواعد البحرية التي تم انشاؤها على أسس دفاعية دقيقة. (وهذا مما أدى الى احباط مخطط انكليزي كان هدفه التوغل داخل حدود المياه الروسية).

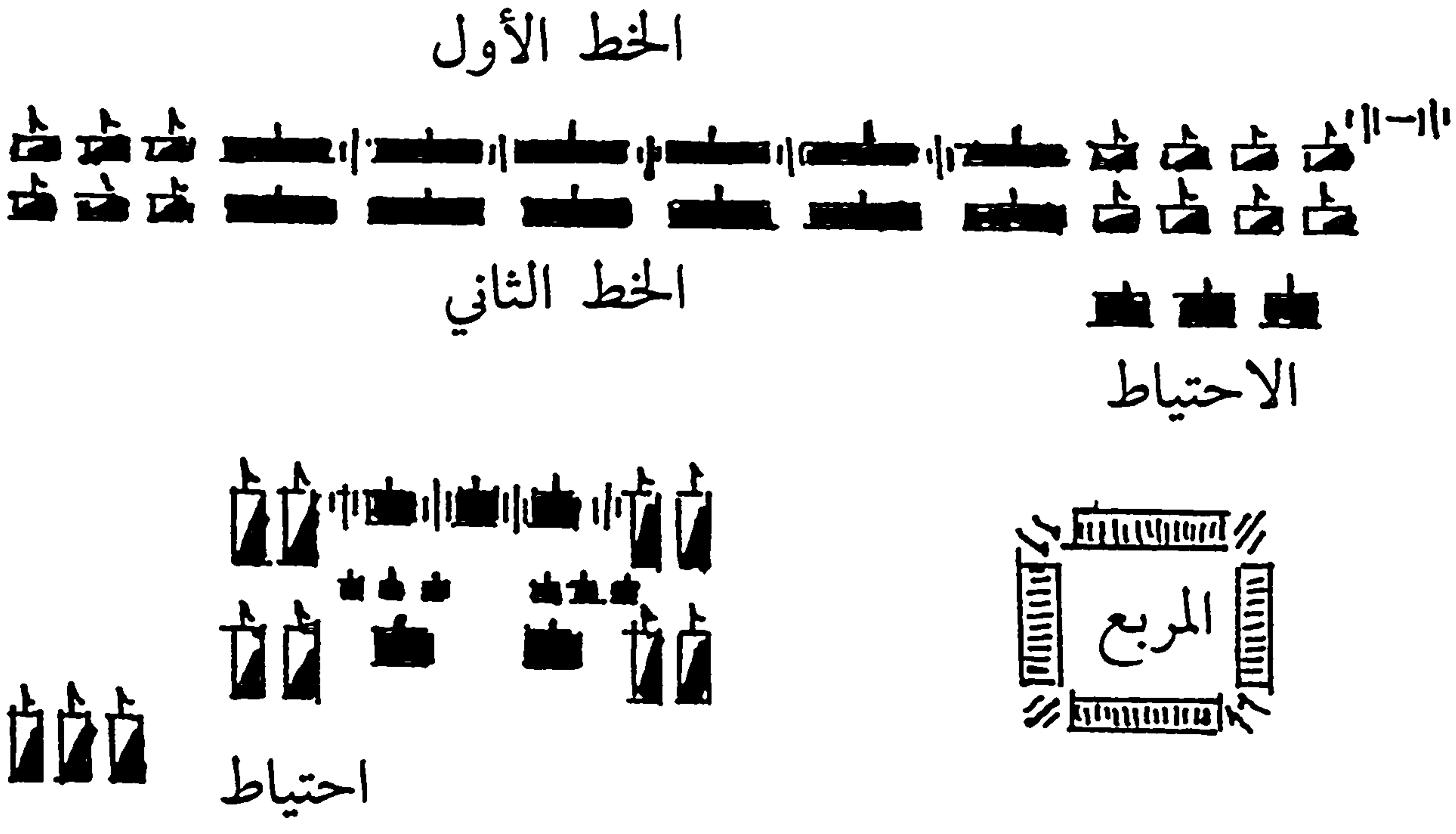
حددت استراتيجية الجيش الروسي الاساليب التعبوية ـ التكتيكية ـ لهذا الجيش. وبما أن المعركة هي الأداة الحاسمة للحرب، فقد أعطيت أهمية بالغة لتمركز القوات وانتشارها ونشاطها في ظروف ميدان القتال. وكانت القوات تنتظم للمعركة في ترتيب القتال الخطي. وقد وضع بطرس الكبير مجموعة من المبادىء لتكون أساساً للترتيب القتالي، وقاعدة لتمركز القوات، على النحو التالي:

وضعت المشاة على خطين. وكان كل خط يتكون من أربعة صفوف، أما المدفعية فقد وضعت في الأمام، وحسب الامكانيات، على الأمكنة المرتفعة. أما الخيالة فقد وضعت على الأجناب. وقد وضع الاحتياط على الخط الثالث. وقد اعتبر هذا الترتيب شكلاً عاماً لتوضع الصنوف الثلاثة من أجل المعركة. وتطلب نظام القتال في كل حالة ملموسة ترتيباً بشكل يتناسب والموقف. وكان عدد الخطوط القتالية ومكان المدفعية والاحتياطات يختلف حسب الموقف المتشكل، وحسب امكانيات الاستخدام الأقصى لكل صنف من القوات (وتجدر الاشارة الى أن هذا الترتيب الذي حدده بطرس الكبير في حرب الشمال ـ والمعروف بنظام قتال ١٧١٦ـ بقي هو النظام السائد في مطلع القرن الثامن عشر ـ انظر المخطط المرفق لترتيب قتال الجيش الروسي، وقارنه مع الترتيب القتالي للقوات الروسية في القرن السادس عشر).

كان الرمي يتم برشقة واحدة، تطلق في وقت واحد من جميع الصفوف ومن جميع الوحدات. ولصد هجمات الخيالة المعادية، كان فوج المشاة ينتظم بتشكيلة المربع. وكان كل ضلع من أضلاع المربع يتألف من (٣٠٠) رجل موزعين على أربعة صفوف.



الترتيب القتالي للقوات الروسية في القرن السادس عشر



الترتيب القتالي للجيش الروسي في مطلع القرن الثامن عشر

وكذلك فإن ترتيب الخيالة قد تبدل أيضاً. فمنذ عام (١٧٠٦) وبسبب بدء انتقال الخيالة من استخدام السلاح الابيض الى استخدام السلاح الناري، فقد أصبحت الخيالة تتوضع على أجناب الترتيب القتالي وبالترتيب المنتشر حسب السرايا.

ان تبدل ترتيب المشاة والخيالة حصل تلبية لحاجات التكتيك ومطالبه. إذ ان تكتيك قوات بطرس الكبير، كان تكتيكاً خطياً بشكل عام. وكان لهذا التكتيك خصائصه المميزة له في بداية القرن الثامن عشر ومن أهمها: أن الجيش الروسي هو أول من استخدم الحربة (**أداة هجومية**) في حين كانت معظم جيوش الغرب تستخدمها (**أداة دفاعية**). وأصبح الانتقال الى الهجوم بالحراب- بعد اطلاق الرشقة النارية- القاعدة العامة للمشاة. وأصبح الهجوم بالسلاح الأبيض بالنسبة للفرسان، هو الأداة الاساسية للمعركة. كما تحسنت مناورة القوات وازداد التعاون بين صنوفها، وكذلك بين أجزاء الترتيب القتالي، وكانت المناورة في ميدان المعركة أمراً ضرورياً حتى للمدفعية، وكانت المدفعية الخفيفة تتحرك مع المشاة. وترمي العدو بنيران (قذائف المنثار).

آ- المرحلة الأولى من حرب الشمال (١٧٠٠- ١٧٠٦)

دفع بطرس الكبير قواته نحو الغرب، بصورة مباغتة، وبدأ عملياته بحصار (نارفا). ولما كان (اوغسطس السكسوني)[٤١] يطمع بانتزاع هذه المدينة وضمها الى املاكه، فقد ساءه هجوم بطرس عليها. غير أن (جون باسكول) تدخل في الأمر، بالرغم من استيائه من تصرف بطرس، ونصح (أوغسطس) بألا يعترض للأمر. وهنا حدث ما قضى على آمال الطامعين باقتسام أملاك السويد، وأفسد عليهم طريق

---

(٤١) أوغسطس السكسوني: (AUGUSTE) هو اسم عدد من امراء الساكس وملوك بولونيا، من اشهرهم اوغسطس الثاني (١٦٧٠- ١٧٣٣) امير الساكس، وهو من مواليد دريسدن. تم انتخابه ملكاً على بولونيا بعد موت (سوبييسكي: J. SOBIESKI) سنة (١٦٩٧) وقد عزله ملك السويد شارل الثاني عشر عن ملكه الذي لم يسترده إلا بعد معركة بولتافا (١٧٠٩). وقد حكم بعده ابنه موريس دوساكس (MAURICE DE SAXE) وجاء بعده ابنه اوغسطس الثالث الذي أصبح ملكاً على بولونيا في الفترة (١٧٣٣-١٧٦٣) والذي كانت ابنته (ماري جوزيف) هي أم الملك لويس السادس عشر- ملك فرنسا-

النجاح. ذلك أن (شارل الثاني عشر) هدد ملك الدانمارك، وحمله على توقيع معاهدة (ترافنتال) واضطر ملك بولونيا أن يرفع الحصار عن (ريغا) عندما ظهر الجيش السويدي ولم يحاول (شارل الثاني عشر) مطاردة هذا الجيش، بل تحول لقتال الروس.

اشتبكت القوات السويدية بالقوات الروسية عند أسوار (نارفا) يوم ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة (١٧٠٠) وكانت القوات الروسية أوفر عدداً من القوات السويدية، وبالرغم من ذلك، فقد تأثر بطرس الكبير بانسحاب حلفائه الدانماركيين والبولونيين من الحرب، لأنه كان يبحث عن (الحسم) بواسطة التفوق الكبير. ولهذا ترك جيشه بقيادة (الجنرال الألماني دون دي كروي) ورجع لارسال قوات دعم إضافية من روسيا. غير أن (شارل الثاني عشر) لم يترك له هذه الفرصة، وأفاد من ستار الظلام والضباب لدفع جيشه السويدي، ومباغتة القوات الروسية بهجوم قوي. وانتشرت شائعة بين الجنود الروس بأن القادة الألمان قد خانوا الجنود الروس، فأشهروا أسلحتهم وأخذوا بالفتك بضباطهم. فلم ير القائد الجرماني (كروي) وسيلة للنجاة إلا بالفرار هو ورفاقه، ودارت الدائرة على القوات الروسية. وهنا استثمر ملك السويد (شارل) الفرصة لتحريض القوات الروسية ضد قيصرها بطرس. فسمح للمقاتلين الروس بالعودة الى أوطانهم، وهم يحملون أسلحتهم وذخائرهم - باستثناء المدفعية ووسائط القتال الثقيلة - واكتفى الملك شارل بأسر الجنود الروس الذين حاولوا الفرار من المعركة.

ترددت انتصار الملك شارل بقوة في كل انحاء أوروبا، وأقبلت الوفود من كل العواصم تحمل اليه التهاني. وأصيب الملك الشاب (بنشوة النصر) و(غرور الاعتداد بالقوة) فمضى في تغذية وقود الحرب، وأخذ في الاعراض عن مشورة قادته وحاشيته، مستبداً برأيه، متهاوناً بشأن هؤلاء - الروس - الذين انتصر عليهم، مستهيناً بهم وبقدراتهم، وانصرف لحبك المؤامرات ضد ملك بولونيا - أوغسطس - وتركيز كل جهوده لاسقاطه، واستثمر (بطرس الكبير) هذا الموقف، فدعم ملك بولونيا بالقوات، وأمده بالأموال حتى يتمكن من الصمود في مواجهة ملك السويد - شارل - ومقاومته. وانصرف بعد ذلك لبناء قدرته الذاتية وبناء قدراته العسكرية استعداداً لجولة الثأر القادمة

بالتأكيد. فعمل على تدعيم الحصون والمعاقل في (نفوغورد) والمدن الداخلية. وجعل لكل أحد عملاً. واستنفر كل امكانات الأمة، ولم يهمل من حسابه إلا فئة الذين ثبتت له خيانتهم، وإلا اولئك الذين سرقوا الخزانةأو ارتشوا ـ غلواـ في أموال الأمة. ونزع أجراس الكنائس، وصهرها ليصنع منها (٣٠٠) مدفع. ونظم عشر فرق عسكرية جديدة تضم كل فرقة منها ألف جندي من الفرسان وأرسل (٢٥٠) ولداً الى المدارس العسكرية. وكان من أول نتائج معركة (نارفا) اعادة تنظيم الخيالةـ الفرسان. إذ حلت الخيالة النظامية (من نوع الدراغون) محل الخيالة العائدة للنبلاء(*)

وكان من نتائج معركة (نارفا) أيضاً انتقال الجيش الروسي من نظام التطوع الى نظام التجنيد الاجباري. وفي الواقع، فان الاستعداد لبناء الجيش النظامي في الدولة الروسية انما تعود الى الفترة من سنة ١٦٩٠ ـ الى سنة ١٦٩٩. **ففي هذه الفترة تم تشكيل الافواج النظامية الاولى. واستمرت بعد ذلك عملية الانتقال الى الجيش النظامي حتى سنة ١٧٠٥. وكان عام (١٦٩٩) نقطة تحول حاسمة في تاريخ الجيش الروسي. ففيه أصدر بطرس الكبير مراسيم تشكيل الجيش النظامي. وكان الجنود يدعون للخدمة مدى الحياة.** وفي عام (١٧٠٥) أصدر بطرس الكبير مرسوماً جديداً، تم بموجبه تبني اسلوب واحد لتعبئة القوات هو اسلوب (التجنيد الاجباري) وكانت قرعات المجندين تؤخذ استناداً لعدد البيوت. ومنذ عام ١٧٢٤، أصبح الانتقاء يتم على أساس تعداد الأشخاص لا البيوت. وكان التجنيد الاجباري يشمل جميع السكان ـ عدا النبلاء الذين كان لهم نظامهم الخاص للخدمة العسكرية ـ كما أُعفي رجال الدين من الخدمة العسكرية، وكان اختيار القرعات يتم مرة في كل عام. وكان من أبرز عيوب نظام الخدمة الالزامية، في ذلك الوقت، عدم توافر العدالة والمساواة بين جميع المدعوين للخدمة، وإمكانية الرشوة للتهرب من الخدمة. وكان يحق للمواطنين الروس ـ ذوي

(*) كان بطرس الكبير قد شكل سنة ١٦٩٩ (قبل معركة نارفا بسنة واحدة) فوجين من الخيالة من نوع ـ دراغون ـ ومن ثم ارتفع هذا العدد وأصبح ٣٣ فوجاً. وكان كل فوج يتكون من عشر سرايا. ومنذ سنة ١٧٠٦، سلحت المشاة بسلاح ناري مجهز بحربة ذات ثلاثة أضلاع. (تاريخ فن الحرب ١/١٥٢ ـ ١٥٣).

المراتب- شراء آخرين ليحلوا محلهم في الخدمة الالزامية. وهكذا فقد كان الجيش- النظامي جيش الدولة الاقطاعية، دولة السادة والعبيد- الاقنان- وكان الضباط يؤخذون من طبقة النبلاء فقط، وأما الجنود فمن العبيد- الاقنان. وكانت الدعوات المتكررة تشكل عبئاً ثقيلاً على عاتق الفلاحين. وعلى كل حال، فإن أسلوب الخدمة الالزامية الذي طبقه (فريدريك) يعتبر أسلوباً طليعياً، حيث كانت روسيا بتطبيقه رسمياً منذ العام ١٧٠٥، أسبق بلاد العالم الغربي لتطبيق هذا النظام(*)

كان للجيش النظامي الروسي تنظيماته الخاصة التي وضعت خلال حرب الشمال، وقد قسم الجيش حسب هذه التنظيمات الى فرق وألوية، ولم يكن قوام الفرق والألوية ثابتاً، بل كان يتبدل بتبدل المواقف. أما قوام الأفواج فهو الذي كان ثابتاً لا يتبدل. وكانت الفرقة تتكون من لواءين أو ثلاثة ألوية. وكانت تضم المشاة والخيالة أو المشاة فقط، ولم يكن عدد الفرق ثابتاً في الجيش. أما اللواء فكان يتألف من فوجين أو ثلاثة أو أكثر. وقد ظهر في تكوين الجيش (الفيلق الاحتياطي) وهو تنظيم عسكري كبير غير دائم، ويعتبر قوة خاصة تستخدم للقيام بعمليات خاصة ذات طابع مستقل. وقد حدد ملاك عام (١٧١١) وحدات المشاة بقوة (٤٢) فوجاً. وأصبح الفوج يتكون ـ منذ عام ١٧٠٨- من كتيبتين، وكل كتيبة من (٤) سرايا، كما شكلت (٩) أفواج جديدة، وأصبح عدد المشاة في هذا العام يزيد على (٧٠) ألف رجل.

قسمت المدفعية الروسية الى (مدفعية الافواج) و (مدفعية الميدان) و (مدفعية الحصار) و (مدفعية القلاع). وكان يدخل في تسليحها ثلاثة أنواع من المدافع: المدافع الطويلة، والمدافع القصيرة (القذاف) وأخيراً (مدافع الهاون). وقد صغر حجم جميع الأنواع الأمر الذي زاد من قدرتها الحركية، وكان لكل نوع عيار محدد بدقة. وقد ساعد وجود الأنواع المتماثلة من المدفعية ذات العيار الموحد على سهولة استخدامها في المعركة.

(*) يذكر هنا أن نظام التجنيد في روسيا قد تعرض لتعديلات كثيرة. ولم يأخذ شكله الحديث الا بموجب (نظام التجنيد الاجباري العام) الذي نفذ اعتباراً من سنة (١٨٧٤).

وتم تشكيل لواء المدفعية اعتباراً من سنة (١٧٠١). ووضع في الجيش الروسي النظامي أسلوب موحد للتدريب، وقد اعطيت أهمية بالغة لتدريب الجنود على استخدام الحراب وعلى المعركة القريبة. وافتتحت المدارس العسكرية لتدريب الضباط، ففي عام (١٦٩٨) افتتحت مدرسة عسكرية في (فوج بيري آبراجنسكي) كما افتتحت اكاديمية بحرية في (بيترسبورغ).

بدأت روسيا ببناء اسطولها وتطويره خلال (حرب الشمال). وبلغ عدد قطع الأسطول الروسي النظامي في عام (١٧٢٥) حوالي (٤٠) مركباً عادياً و(١٠) فرقاطات و(١٠٠) زورق صغير في بحر البلطيق. كما خصص اكثر من (١٠٠) زورق مختلف للعمل في بحر قزوين.

يمكن على ضوء ما تقدم فهم اسباب التحولات التي ظهرت في (حرب الشمال) وهي التحولات التي استمرت بصورة بطيئة، ولكن بثبات. ففي السنة التالية لهزيمة الروس في (نارفا) هاجم القائد الروسي (تشرمنتيف) القوات السويدية التي كانت تحت قيادة (سلبنياتش) في ليفونيا. وكان الروس اكثر عدداً. فكان الفوز لهم، وخسرت القوات السويدية ثلاثة آلاف وخمسمائة (من أصل سبعة آلاف) كما أسر منهم ثلاثمائة وخمسون. ورغم ضآلة حجم هذا الانتصار، فقد اهتزت موسكو فرحاً لفوزها على القوات السويدية -المرعبة- واقيمت الزينات الكبرى والاحتفالات الضخمة. وعمل بطرس الكبير على ترفيع قائده (تشرمنتيف) الى رتبة كاتم اسرار الجيش- قائد عام- وهتف بطرس: (**المجد لله، اننا سنكون في يوم من الايام قادرين على هزيمة السويديين**). وفي هذه السنة ذاتها- ١٧٠١- استطاع الاسطول الروسي الانتصار على سبع سفن سويدية في معركة وقعت في مياه البلطيق.

تجدد القتال في السنة التالية (١٧٠٢) وتمكن (تشرمنتيف) من الحاق الهزيمة بالقوات السويدية في (هملسدورن) وقتل منها ستة آلاف محارب (من أصل ثمانية آلاف) كما استولى على ذخائرها ووسائطها القتالية.

بدأ بعدها (بطرس الكبير) في تنفيذ مخططه للاستيلاء على (نهر نيفا)[42] الذي كان ملك الأمراء الروسيين السابقين، والذي منه أخذ اسكندر نفسكي لقبه (القديس) إذ هزم السويديين أولاً، فاستولى على (نوتبرغ) المسيطرة على نهر نيفا عند خروجه من بحيرة (لادوغا)[43] وأطلق عليها أسم (شلسلبرغ) ومعناها (قلعة المفتاح) لأن ذلك الموقع يجعله مالكاً للنهر. وكان للسويديين قرب مصب نهر نيفا قلعة (نهيشانتر) فامتلكها ودمرها، وبنى في جزيرة مجاورة قلعة قريبة من المكان الذي شيد بطرس فيه عاصمته الجديدة (بيترسبورغ). وأضحت تلك الجزيرة الصغيرة حاجزاً حصيناً في وجه السويديين إذا ما فكروا بعبور النهر، وبذلك أحكم سيطرته على نهر النيفا.

وعاد بطرس الاكبر في سنة (١٧٠٣) لتطوير الصراع، وأمكن لقواته الاستيلاء على سفينتين سويديتين، كما استولى على بعض المدن الهامة. وبذلك أمكن الانتقام لهزيمة (نارفا) وهب الشعب الروسي كله للمطالبة بكل ما كان لأسلافه من المدن والأراضي. وتم قتل عدد كبير من السويديين وأسر رجالهم ونسائهم وأولادهم حتى ضاقت دونهم المدن. وما كان حرق المدن وسبي الشعب ليردع ملك السويد (شارل) أو يمنعه عن متابعة محاولاته لالحاق الضرر بالملك (أوغسطس السكسوني) ملك بولونيا.

أصبح باستطاعة بطرس الكبير - اعتباراً من سنة ١٧٠٥ - تركيز كل جهده لمتابعة ما يقوم به السويديون على مسرح - بولونيا - ومنعهم من تنفيذ مخططاتهم ضد (خليفة اوغسطس الذي عزله شارل منذ سنة ١٦٩٧) والذي كان له دور كبير في مساعدة الروس على امتلاك ايثونيا وليفونيا، وعلى هذا الاساس عبرت القوات الروسية (نهر دونيا) واحتلت (كورلاند) و (ولنا). وكان على بطرس الكبير وهو يجابه اعداء الخارج، تخصيص قسم من جهده لمجابهة اعداء الداخل. فبينما كان يستعد لمحاربة السويديين

---

(٤٢) نهر نيفا: (NéVA) نهر روسي، ينبع من بحيرة لادوغا (LADOGA) ويمر بمدينة لينينغراد، ويصب في خليج فنلندا، وهو نهر غزير المياه، يصلح للملاحة وطوله (٧٥) كيلومتراً.

(٤٣) بحيرة لادوغا: هي بحيرة كبيرة في شمال غرب روسيا، مساحتها (١٨,٢٠٠ كيلومتر مربع) ويصل نهر نيفا بينها وبين خليج فنلندا.

بلغه اندلاع الثورة في (استراخان) فاضطر الى ارسال قسم من قوته بقيادة (تشرمنتيف) الى نهر الفولغا. واعلن (الاسترلتش) بدورهم الثورة، واستنجدوا بالقوزاق لمساعدتهم في تمردهم. ولقي جيش بطرس صعوبات كبيرة في (ليوثانيا)[٤٤] إذ استطاع السويديون الحاق الهزيمة بجيش - أوغسطس- في (فرونستدانت) وأرغموه على الرجوع الى سكسونيا. ولم يتمكن بطرس الكبير من سحب جيشه وارجاعه الى كييف- سالماً، إلا بفضل ما توافر لبطرس من كفاءة عالية. وفي السنة التالية (١٧٠٦) تغلب (منتشيكوف)[٤٥] على القوات السويدية في معركة وقعت على مقربة من (كاليتش). وعلى الرغم من أن عدد الجيشين كان متقارباً، فقد انتصر الروس واستطاعوا قتل عدد كبير من أفراد جيش عدوهم.

ب- معركة بولتافا (١٧٠٩)

أدى تصعيد الصراع باستمرار ما بين السويد وروسيا، الى تحكم العداء بين ملك السويد (شارل) وقيصر روسيا (بطرس). وانصرف كل واحد منهما الى تركيز الجهود جميعها لقهر الآخر. واستطاع ملك السويد التحالف مع عدد من ملوك أوروبا. ولكن ذلك لم يضعف من ارادة بطرس الذي كان - كما وصفه الاتراك- «**ذا رأس حديدي، وقلب لا يعرف الخوف أو الوجل، وعزم لا يصله الخور أو الوهن مهما عظمت الاحداث**». وكان لا بد من التقاء هذين الخصمين لحسم الصراع في ميدان المعركة. فزحف شارل الثاني عشر في عام (١٧٠٧) على رأس جيش يضم (٥٣) ألف رجل، واجتاز (ساكسونيا) متوجهاً الى الأراضي الروسية. وترك عشرة آلاف مقاتل لحماية

---

(٤٤) ليوثانيا: (LITHUANIE) الاسم القديم لليتوانيا (LITHUANIE) وفي اللغة البولونية ليتوفا (LIETUVA) وهي حالياً احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي على بحر البلطيق في اوروبا الشرقية- وعاصمتها فيلنيوس: (VILNIUS).

(٤٥) منتشيكوف: (MENTCHIKOV) واسمه الكسندر دانيلوفيتش:(ALEXANDRE DANILOVITCH)(ماريشال بطرس الكبير ووزيره، وكذلك وزير القيصرة كاترين الاولى بعد ذلك . وهو من مواليد موسكو (١٦٧٢- ١٧٢٩). غضب عليه بطرس وابعده منفياً الى سيبيريا، غير أنه أسهم في انتصار معركة بولتافا.

حليفه على عرش (نييمن) وهو (ستانسلاس)[٤٦] وكان من المفروض أن يلتحق به جيش آخر مؤلف من (١٨) ألف رجل كان ينتظر قرب مدينة (ريغا). وكانت الخطة الاستراتيجية لشارل الثاني عشر، تهدف الى تدمير الجيش الروسي، واحتلال موسكو عن طريق (سمولنسك). وفي مطلع عام (١٧٠٨) احتلت القوات السويدية مدينة (جرودنا) وقد اقتحمها الملك شارل ومعه مائة رجل فقط، في مقدمة القوات، وكاد يقع في أسر الحامية الروسية. ثم تابعت القوات السويدية عملياتها، فاستولت في شهر تموز ـ يوليو ـ على مدينة (ماجليف) واندفعت في شهر آب ـ أغسطس ـ نحو سمولنسك. وأمام هذا الموقف اضطر القيصر بطرس الى العودة الى روسيا لاكمال استعداداته، وخرب اثناء انسحابه كل ما صادفه في طريق ليتونيا. وتبين إذ ذاك أن اسم السويد لا يزال مرهوب الجانب في كل مكان، ولدى الجميع. كما تبين أنه من المحال على (بطرس) مقاومة القوات السويدية التي انضمت اليها القوات البولونية فبلغ عدد مقاتليها (٦١) ألف مقاتل. والتي كانت قد اكتسبت شهرة عالمية بتدريبها وتنظيمها. وفي هذا الوقت، كان على (بطرس) ايضاً مجابهة الاضطرابات والثورات الداخلية. حيث اندلعت نار الثورة في ضواحي (الدون) بالاضافة الى ثورة القوزاق في ضواحي (الدنيبر). وكان لا بد للقيصر بطرس من تقديم (احداث الجبهة الداخلية) على (صراعات الجبهة الخارجية). **فبدأ اتصالاته مع عدوه ملك السويد. وأظهر أن كل ما يطلبه هو منحه مرفأ على بحر البلطيق. فكان جواب شارل الثاني عشر: «سأتباحث بذلك مع القيصر في موسكو» فلما علم بطرس بهذا الرد، قال: «ان اخانا شارل، قد أراد أن يجعل نفسه الاسكندر، ولكنه نسي انني لست داريوس»[٤٧].**

---

(٤٦) ستانسلاس: (STANISLAS) اسم عدد من ملوك بولونيا، ومنهم ستانسلاس الأول ولقبه (LESZCZYNSKI) عاش في الفترة (١٦٧٧ـ ١٧٦٦) وأصبح ملكاً على بولونيا سنة ١٧٠٤، ثم ملكاً على (بار) و (اللورين)، وأصبح والد زوجة الملك الافرنسي لويس الخامس عشر. ومن أبرز اعماله تجميل (نانسي) وتطويرها.

(٤٧) داريوس (DARIUS) اسم عدد من ملوك الفرس والمقصود هنا داريوس الثالث (كودومان: CODOMAN) ملك الفرس من سنة (٣٣٦) الى سنة (٣٣٠) ق. م. انتصر عليه الاسكندر المقدوني في معارك (غرانيك) و (ايسوس) و (جلجاميل) قرب (آربيل) (انظر كتاب الاسكندر المقدوني) من هذه المجموعة.



موقعة بولتافا عام ١٧٠٩

اجتاز (شارل الثاني عشر) بجيشه (نهر نييمن)(٤٨) في وسط غابات (منسك)(٤٩) وقام بقطع الأشجار لشق طريق من أجل الوصول الى (برزبينا). وكانت القوة التي قادها شارل لا تزيد على ثلاثين ألف جندي، فوصل الى موهيليف ومستسلاف. وفي (سمولنسك) هاجم قوة من (١٦ ألف جندي روسي). ثم استأنف تقدمه نحو موسكو (على ذات الطريق التي اتبعها نابليون بعده سنة ١٨١٢). وفي أواخر أيلول - سبتمبر - ١٧٠٨ وصل (شارل) بجيشه حتى مسافة (٣٠٠) ميل من موسكو.

اقترب فصل الشتاء. وظهرت بواكيره التي تشير إلى أن فصل الشتاء سيكون قاسياً تلك السنة. وفشلت الخطة السويدية لاحتلال موسكو بسبب الدفاع القوي الذي أظهرته القوات الروسية بالتعاون مع السكان. وابتعدت القوات السويدية كثيراً عن قواعدها. وأصبحت في أرض خاوية، إذ قام الفلاحون بطمر الحبوب والمؤن في الأرض، وانطلقوا بمواشيهم نحو الغابات. وبات بذلك الطريق الى موسكو مقفراً تماماً. الأمر الذي تهدد الجيش السويدي بالفناء. وكان لا بد للملك (شارل) من الأخذ بنصيحة مستشاريه الذين أشاروا عليه بالعودة من (مستسلاف) الى (موهيليف) والانتظار هناك ريثما ينضم اليه (لونهايت)(٥٠) الذي كان يقود قوة دعم من (١٨) ألف مقاتل، ومعه ذخيرة ومواد تموينية بكميات وافرة. وكذلك انتظار (مازبا)(٥١) الذي كان قد وعد الملك (شارل) بالانضمام اليه ومعه (٣٠) ألف مقاتل من القوزاق. وهكذا توجه الملك (شارل) الى موهيليف، ومنها الى (اوكرانيا). وأثناء ذلك كان (بطرس

---

(٤٨) نهر نييمن: (Niémen) نهر في روسيا البيضاء وليتوانيا، يصب في البلطيق وطوله (٨٣٠ كم)

(٤٩) منسك: (MINSK) عاصمة روسيا البيضاء على نهر سفيسلوتس: (SVISLOTCH)

(٥٠) لونهايت: (ADAM LOUIS COMTE DE LEWENHAUPT) قائد سويدي، ولد قرب مدينة كوبنهاغن. (١٦٥٩- ١٧١٩) مقاتل شجاع وقائد ماهر بالرغم من الهزيمة التي نزلت به على ضفاف الدنيبر.

(٥١) مازبا: (MAZEPPA) زعيم قوزاقي (هيتمان: :HETMAN) من مواليد (مازيبنتزي : MAZEPINTZI) (١٦٤٤-١٧٠٩) اشتهر بقصة مغامرته التي كان يجب لها أن تقوده الى الموت، فقادته الى الرفعة. فقد ربط بقيود الى حصان جامح متوحش انطلق به حتى أوصله الى اوكرانيا حيث تم انتخابه زعيماً للقوزاق فوضع نفسه في البداية تحت خدمة القيصر بطرس الكبير، ثم انقلب ضده وتحالف مع ملك السويد شارل الثاني عشر. واضطر الى اللجوء الى تركيا بعد هزيمة شارل في معركة بولتافا. ولم يلبث حتى مات في بندر BENDER.

الكبير) يتابع تحرك عدوه، ولم يلبث أن انقض في نهاية شهر ايلول ـ سبتمبر ـ (وقرب ليبيسني) على جيش (لونهايت) فلم تصمد القوات السويدية لهذا الهجوم المباغت، لا سيما وانها باتت منعزلة على ضفاف نهر الدنيبر. وخسر القائد السويدي (١٢) ألفاً من قوة جيشه. واضطر الى كسر مدافعه واحراق حمولة ألف عربة من الذخائر والمواد التموينية. وأسر الروس (الستة آلاف الباقية) وتركوا القائد (لونهايت) حتى يذهب الى مليكه (شارل) ح وينقل اليه خبر المأساة التي نزلت بجيشه.

سحقت قسوة الشتاء (جيش شارل الثاني عشر) ومات الوف من جيشه بسبب قلة الكساء. كما هلكت مئات الخيول بسبب قلة العلف. وصار الجنود يقذفون بأسلحتهم الى النهر بسبب عدم وجود حيوانات لنقلها. وبلغ من شدة البرد وقسوته أن الغربان والطيور كانت تقع ميتة من السماء. وانصرف الاطباء لعلاج المرضى الذين تجمدت أطرافهم. وبقي (شارل) مستمراً في السير مع جيشه وهو في هذه الحالة من الجوع والعري. وكان يقيس المسافة الباقية له حتى يبلغ (آسيا). ويؤكد لرجاله بأنه سيصل بهم الى أماكن يسمعون بها أخبار بلادهم ثلاث مرات في السنة. وأراه أحد الجند الخبز الذي كان يقتات به الجيش، فأخذه الملك، ونظر اليه، ثم أكل منه. وقال: «ليس هو صيداً ولكن يمكن أكله».

قرر (شارل الثاني عشر) قيادة جيشه في ربيع (١٧٠٩) والانطلاق به من اوكرانيا للهجوم على موسكو، عن طريق (خاركوف ـ بلجورد) علماً بأن قوته قد نقصت الى حد بعيد، وأصبحت لا تزيد على (٣٥) ألف رجل. ولتوفير ظروف ملائمة للهجوم ، قرر شارل الاسراع باحتلال مدينة (بولتافا). وكانت حامية المدينة مؤلفة من (٤) آلاف جندي و (٢٥٠٠) مقاتل تقريباً من المواطنين المسلحين. وقد دافعت هذه الحامية عن المدينة بشجاعة وبطولة، وكان للدفاع الباسل عن مدينة (بولتافا) أهمية استراتيجية كبرى. إذ ان هذا الدفاع أوقف تقدم القوات السويدية لمدة ثلاثة أشهر أمام المدينة، الأمر الذي وفر للقوات الروسية الوقت اللازم للاستعداد وخوض الموقعة الرئيسية. وقد صدت الحامية الصغيرة لهذه المدينة اكثر من (٢٠) هجوماً. وكبدت القوات السويدية خسائر فادحة.

وصل القيصر بطرس الكبير الى ضواحي (بولتافا) على رأس جيش ضخم يضم (٦٠) ألف مقاتل ، يوم (٤) حزيران ـ يونيو ـ ١٧٠٩ . وكان جيش الملك شارل قد تناقص حتى (٢٩) ألف مقاتل. كما كانت قوة هذا الجيش قد استنزفت بتأثير الحرارة اللاهبة. بعد أن كانت البرودة القاسية في الشتاء قد أضعفتها. وعلاوة على ذلك كان الجيش السويدي يملك (٤) مدافع فقط ، بينما كان الجيش الروسي يمتلك (٧٢) مدفعاً(*)

قرر بطرس الكبير الإشتباك مع جيش خصمه (شارل) في موقعة حاسمة. فقاد جيشه الى قرب (بولتافا) يوم ٢٥ حزيران ـ يونيو ـ وبنى معسكراً حصيناً شمال المدينة بمسافة لا تتجاوز (٥)كيلومترات. كما أمر ببناء أربع منشآت دفاعية على خط واحد، في مكان مفتوح بين الغابات، ممتد حتى مسافة كيلومترين. وأتبعها ببناء (٦) منشآت دفاعية عمودية على الخط الأول. وأمكن انجاز تحصينين من أصل الاربعة الاولى بشكل نهائي. وكانت المنشأة الدفاعية عبارة عن ساتر ترابي محصن له شكل رباعي، وتبعد كل منشأة عن التي تليها مسافة مائتي خطوة تقريباً (١٥٠ م).

خرج الملك شارل ذات ليلة لاستطلاع التحصينات التي كان يشيدها خصمه، فأصيب بجرح في رسغ قدمه ألزمه الى اجراء عملية جراحية مؤلمة، واضطر يوم المعركة الشهيرة في ٢٧ حزيران ـ يونيو ـ ١٧٠٩ الى التوجه للمعركة محمولاً على محفة. الأمر الذي أدى الى الاختلاف بين قادته الذين ترك لهم أمر ادارة المعركة.

نظم القيصر بطرس قواته، فعين لقيادة القلب (الجنرال تشرمنتيف)، وأسند قيادة الجناح الايسر الى (متشنكوف)، كما أسند قيادة الجناح الايمن الى (رينه) وترك قيادة المدفعية الى (بروس) ثم وقف خطيباً بينهم، وقال لهم:

«ان الساعة التي يقرر فيها مصير بلادنا ومستقبلها قد حانت، وانكم تحاربون

(*) جاء في كتاب (تاريخ فن الحرب ـ ستروكوف ١/١٦١) أن عدد مدافع الجيش الروسي كان (٤٢ مدفعاً). بينما جاء في (تاريخ روسيا ـ خرباوي ـ ١٩١) ان عدد هذه المدافع ٧٢ مدفعاً.

لأجل المملكة التي يخدمها بطرس من أجل وطنكم ودينكم الارثوذكسي ولأجل كنيسة الله. واعلموا أن بطرس مستعد للتضحية بحياته من أجل إنتصار روسيا ورفعتها ومجدها».

تمركزت أفواج المشاة الروسية ومدفعيتها في المعسكر المحصن- في ليلة ٢٧ حزيران - يونيو- كما تمركز فوج واحد في المنشآت الميدانية المحصنة. وأما الخيالة - الفرسان- فقد تمركزت كلها خلف المنشآت المحصنة، وتركت قيادتها الى (متشنكوف). وكانت فكرة بطرس الكبير تتلخص في انهاك العدو أمام المنشآت المحصنة التي كانت بمثابة الموقع المتقدم، ثم تدميره نهائياً بموقعة رئيسية حاسمة.

دفع شارل الثاني عشر جيشه نحو القوات الروسية في الساعة الثالثة من فجر يوم ٢٧ حزيران - يونيو-. وقد سارت المشاة في الخط الأول منتظمة بأربعة أرتال. وسارت الخيالة منتظمة بستة أرتال في الخط الثاني. وعند وصول المشاة السويدية الى المنشآت الدفاعية الأربعة، بدأت المعركة من أجل احتلال هذه المنشآت. وعندها أمر شارل الثاني عشر خيالته بالعبور من بين ارتال المشاة لاقتلاع الروس من المنشآت المحتلة. وهكذا بدأت معركة بولتافا الشهيرة (انظر مخطط المعركة). هذا وقد مرت المعركة بمرحلتين متمايزتين:

١- المرحلة الأولى للمعركة:

وهي تمثل معركة الخيالة الروسية وفوج المشاة المتمركز في المنشآت المحصنة مع الجيش السويدي من أجل السيطرة على الموضع المتقدم. وقد بدأت المعركة عند هذه المنشآت في الساعة الثالثة، واستمرت حوالي ساعتين، استطاعت القوات السويدية خلالها احتلال منشأتين من المنشآت الاربع الطولانية، ولم تستطع احتلال المنشأتين المتبقيتين. عندها أمر شارل الثاني عشر قواته أن تنعطف نحو اليسار. وأن تتجنب المنشآت الدفاعية. وعلى الأثر أعطى (متشنكوف) أمراً للخيالة باغلاق الثغرة بين الغابة والمنشآت الدفاعية، بعد أن سمح لجزء كبير من القوات السويدية بعبورها. الأمر الذي

أدى الى تجزئة القوات السويدية، حيث استطاع بعضها العبور، ولم يستطع بعضها الآخر ذلك، وفر عائداً الى الغابة قرب بولتافا. عندها طارد (متشنكوف) القسم الفار الى الغابة، ودمره هناك. أما القسم الأكبر الذي استطاع المرور، فقد توجه نحو المعسكر الروسي بهدف احتلاله، وبوغت هناك بنيران قوية من المدفعية والأسلحة النارية الأخرى التي لم يكن السويديون يتوقعون وجودها بتلك الكثافة، الأمر الذي اضطر هذه القوات للفرار الى غابة (بوديشنسك).

٢ـ المرحلة الثانية من المعركة (اصطدام القوات الرئيسية):

قرر بطرس الكبير افساح المجال أمام القوات السويدية التي لجأت الى غابة (بوديشنسك) من أجل الخروج والقتال على أرض مكشوفة. ولهذا أخرج قواته من المعسكر، ورتب قوات المشاة على خطين، وأما الخيالة فقد وضعها على الأجناب. وقد بقي الاحتياط في المعسكر مشكلاً الخط الثالث. ومقابل ذلك، وضع شارل الثاني عشر قوات مشاته على خط واحد، ووضع الخيالة على الأجناب وعلى خطين.

اقتربت القوات الروسيةوالسويديةبعضها من بعض في الساعةالتاسعة صباحاً. وبعد الوصول الى المدى المناسب، ابتدأت المعركةالنارية، ثم بدأ الالتحام بالسلاح الأبيض على طول الجبهة. وعندها قامت الخيالة الروسية بتطويق أجنحة القوات السويدية، ثم اندفعت نحو مؤخرة هذه القوات التي دب فيها الذعر ولاذت بالفرار نحو غابة (بوديشنسك). وما حلت الساعة الحادية عشرةـ أي بعد ساعتين من بدء الموقعة الرئيسيةـ حتى أصبحت القوات السويدية مدمرة، وأما القوات التي استطاعت الفرار، فقد شكل لها مفرزة قوية من الخيالة لمطاردتها وتدميرها بقيادة (متشنكوف) الذي استطاع تطويق هذه القوات فاستسلمت بكامل عددها البالغ (١٥) ألف رجل.

تولى بطرس الكبير إدارة المعركة بنفسه، ويذكر انه بينما كان يشجع جيشه، أصابته كرة في قبعته. غير أن تعرضه للخطر لم يمنعه من متابعة دوره القيادي حتى النهاية. كما أظهر (متشنكوف) حماسة كبيرة، حتى أن ثلاث أفراس قتلت تحته أثناء

القتال. أما من جهة شارل الثاني عشر، فقد تعرض أثناء المعركة لاخطار كبيرة، حتى أن الخيل التي كانت تجر محفته قتلت كلها، فتناوب خدامه، وعددهم اربعة وعشرون، حمله على اكتافهم ولكن واحد وعشرون منهم سقطوا قتلى. وفي النهاية، استطاع ركوب حصان حمله مع مفرزة من اعوانه الى نهر الدنيبر،فتم عبوره. والتجأ الملك وحاشيته الى تركيا.

أقام بطرس الكبير في الليلة التالية للمعركة حفلاً كبيراً حضره قادة الجيش السويدي الذين كانوا من أفضل قادة الحرب في ذلك الجيل، واكرم القيصر وفادتهم، وشرب نخب (اخوانه في صناعة الحرب). ووردت على بطرس رسائل التهنئة من كل انحاء بلاده، تهنئه بالنصر الرائع. وقرعت اجراس الكنائس في سائر اقطار المملكة وقدمت الشكر لله. وخسر شارل الثاني عشر كامل جيشه فوق أرض معركة (بولتافا). حيث بلغ عدد القتلى (١٠) آلاف قتيل وحوالي (١٥) ألف أسير، وأكثر من ألف ضابط. وخسر الجيش الروسي (١٤٠٠) قتيل تقريباً و (٣٣٠٠) جريح.

٥- بطرس الاكبر و (بناء الدولة)

لم يكن انتصار القيصر بطرس الاكبر في (بولتافا) مشابهاً لانتصار ملك السويد شارل الثاني عشر في (نارفا). فقد كان الانتصار السويدي انتصاراً على مستوى العمليات (أو حتى على المستوى التعبوي - التكتيكي). بينما كان انتصار (بولتافا) انتصاراً استراتيجياً كبيراً نجم عنه تحول كامل في تاريخ البلدين المتصارعين (روسيا والسويد). وانعكس هذا التحول بدوره على عالم القرن السابع عشر والثامن عشر، سواء على مسرح اوروبا الغربية، أو على مستوى الصراع الروسي- العثماني، الذي أخذ طابع التطوير للصراع الاسلامي- الصليبي.

لقد بقيت السويد طويلاً، ولا سيما في عهدي (ادولف)[٥٢] و (شارل الحادي عشر)[٥٣] وهي تحتل مركز الصدارة في العالم الغربي. وامتدت سيطرتها لتشمل مناطق شاسعة من اوروبا. ولكن ها هي الآن، وبعد معركة (بولتافا) وقد تدهورت تدهوراً مريعاً، فاقتسمت الممالك المحيطة بها أملاكها، وظهرت كيانات جديدة (بولونيا) وأصبح مليك البلاد طريداً لاجئاً لدى (آل عثمان).

وكانت (روسيا) طوال عهود متتالية وهي نهباً لصراعاتها الداخلية، وهدفاً لاعدائها الخارجيين الطامعين فيها. وها هي الآن تخرج من معركة (بولتافا) وقد ضمت اليها اجزاء هامة على ساحل البلطيق. وظهرت قوة جديدة لها قيمتها لا في الشمال فقط، وانما في اوروبا كلها. ولم تعد المخاوف تتهددها من غزوات السويد أو بولونيا، أو تركيا أو

---

(٥٢) أدولف العظيم: (ADOLPHE LE GRAND) واسمه غوستاف الثاني(GUSTAVE: ii)) من مواليد استوكهولم (١٥٩٤- ١٦٣٢) ملك السويد من سنة١٦١١حتى سنة ١٦٣٢. وكان لديه من الذكاء والكفاءةما يتناسب مع طموحه، فأعاد تنظيم الجيش السويدي، وتحالف مع (ريشيليو) لدعم البروتستانتيين الألمان خلال حرب الثلاثين عاما. وانتصر في. سنة (١٦٣٢) على الأمبرياليين في معركتي (بريتنفيلد : BREITENFELD) و ليك: LECH) غير أنه ما لبث أن مات في طعنه- في القلب- وهو في قلب معركة (لوتزن: LUTZEN).

(٥٣) شارل الحادي عشر: (CHARLES XI) وهو ابن شارل العاشر المعروف باسم(شارلغوستاف) خلف أباه على ملك السويد وعمره لا يتجاوز الخمسة اعوام. وقد عاش في الفترة من (سنة ١٦٥٥ الى سنة ١٦٩٧) وتحالف مع فرنسا سنة ١٦٧٥ ضد هولاندا، وأقام في بلاده (النظام الملكي المطلق). وقد ترك الحكم بعد موته لابنه شارل الثاني عشر.

التتار، بل بات بمقدورها مجابهة تحديات فرنسا وانكلترا، والنمسا (آل استريا). ودخل السلافيون المحترفون عالم السياسة والتجارة والحرب.

لقد كان (بطرس الأكبر) هو أول من أدرك أهمية هذا التحول، فكتب من ميدان المعركة (**لقد وضع الحجر الأول في أساس بناء بيترسبورغ - بعون الله**». ولم يكن بناء العاصمة الجديدة للدولة الروسية إلا تأكيداً لمجموعة التحولات التي أراد بطرس الأكبر ادخالها الى المجتمع الروسي. وقد استثمر بطرس الاكبر انتصاره في (بولتافا) من اجل اعادة تنظيم جبهته الداخلية وزيادة قدرتها وفاعليتها. وفي الوقت ذاته، كان انتصار بولتافا دليلاً موجهاً للقيصر الذي أدرك أهمية الاصلاح الداخلي لتحقيق الانتصار الخارجي.

لقد سار (بطرس الأكبر) على نهج أسلافه من (آل رومانوف) في سياسة الانفتاح على الغرب. وكان لا بد لهذه السياسة من أن تصطدم بالمقاومة التي أمكن ترويضها واخضاعها. وعلى الرغم من تدمير كثير من مراكز القوى، فقد بقيت هناك فئات كثيرة قبلت فكرة الاصلاح مبدئياً، غير أنها لم تكن مستعدة للذهاب مع بطرس بعيداً فيما يريد تنفيذه باسم هذا الاصلاح. وبقي عدد كبير من رجال السياسة ورجال الدين- الاكليروس- وهم يناصبون بطرس العداء. كما كان شعب روسيا المحافظ يكره التحولات المباغتة أو الاصلاحات المفروضة بالقوة. كما كان الاشراف أيضاً يقفون ضد كل ما يناقض مفهومهم (الاوتوقراطي) للحكم. وهكذا كان للقيصر بطرس من مجابهة مقاومات كثيرة ومتنوعة في وسط شعبه، فلجأ الى اخضاع تلك المقاومات بطرائق متباينة وأساليب متعددة. واذا كان الرفق واللين غير مجدٍ لبلوغ الهدف، فهناك البطش والقمع. وبذلك أمكن دفع الأمة الروسية مرغمة الى الطريق الذي اختاره لها بطرس، وكانت النتيجة اقتران قائمة من القتلى والسجناء مع كل صفحة من صفحات الاصلاحات القيصرية. واستطاع بطرس بذلك ارساء قواعد السلطة السياسية المشابهة لسلطة ملوك الغرب واباطرتهم.

لقد أراد بطرس نقل مواطنيه البالغ عددهم في زمنه (٢٠) مليوناً، ليكونوا على

ذات مستوى المواطنين الاوروبيين، ومن أجل ذلك، طور تعاونه مع الاوروبيين . وفتح ابواب بلاده لكل الجنسيات الاوروبية، فجاءه الرجال من كل بلاد هولاندا وانكلترا وفرنسا واسكوتلندا وسويسرا وجرمانيا، ليقوموا بما يطلبه منهم من اعمال مختلفة وواجبات متنوعة، واستورد من بلادهم الصناعات والآلات وغيرها. وترجم من لغاتهم الى لغته كتباً كثيرة، غير أنه حاول باستمرار المحافظة على أصالة الشعب الروسي، ضارباً المثل باستمرار في شخصه الذي بقي روسياً في مواطنته وحماسته لبلاده وجرمانياً في تعليمه وثقافته وتفكيره. ولهذا كان الاصلاح في مفهومه هو تغيير العادات والاخلاق ونهج الحياة والسياسة والدين والآداب والمعارف وغيرها.

تزوج بطرس في سنة ١٦٨٩ من ابنة أحد رعيته، على مقتضى العادة التي كانت جارية عندهم في ذلك الوقت، وهي أنه أذا أراد الملك أن يتزوج ، جيء اليه بعدد من أجمل بنات المملكة، فتأخذهن قيمة القصر، وتضع كل واحدة منهن في غرفة منفردة، ثم تأتي بهن وقت الطعام، وتقف بهن حول المائدة، فيأتي الملك متنكراً وأحياناً غير متنكر، فمن أعجبه منظرها وشكلها، خلع عليها خلعة العرس، فتكون هي التي اختارها زوجة له، أما البنات الاخريات، فيغرق عليهن أثواباً ويصرفهن.

وكان في جملة البلاد التي افتتحها بطرس، بلدة (فريبورغ) على حدود ليغونيا. وقد أسر الروس نساءها، وكان في جملتهن ابنة اسمها (كاترين) من عائلة (سكافرونسكي) على الأرجح. ـ وقيل انها كانت خادمة في بيت أحد الكهنة، وأنها كانت مخطوبة لأحد الفرسان السويديين ـ وانتقلت (كاترين) من مكان الى آخر، حتى رآها بطرس، فأعجبه شكلها وشجاعتها وخصالها فتزوج منها رسمياً، ولكن بطريقة سرية سنة (١٧١٢) ابان حربه مع الاتراك.

كان نظام بيع العبيد ـ الاقنان ـ في روسيا، نظاماً وحشياً جائراً، فكان من العادة المألوفة بيع العبيد كالمواشي، ويفرقون بذلك بين الرجل وامرأته وأولاده، فعمل (بطرس) على اصلاح هذا النظام، وقال: «**اذا لم يكن بالمستطاع ابطال بيع العبيد، فمن**

الضروري ابطال عادة تفريق العائلة. فمن أراد أن يشتري عبداً، فعليه أن يشتريه مع امرأته وأولاده».

عمل (بطرس) على اعادة تنظيم اجهزة الحكم. فأبدل (الدوما القديمة) (بمجلس الأعيان) وجعل عدد أعضائه تسعة أعضاء. ولم يكن لهذا المجلس في بداية الأمر شيء من السلطة. - إلا في حالة غياب القيصر- ثم تدرج في زيادة أعضاء المجلس - عدداً- مع منحهم قدراً من الصلاحيات والسلطة، فصار ذلك المجلس هو (مجلس شورى الدولة) و(مجلس مراقبي المالية) و(مجلس القضاء الأعلى للنظر في كل الدعاوى). وبات - بطرس - وهو يأخذ بوجهات نظر اعضاء المجلس، وينفذ لهم اقتراحاتهم ومطالبهم. وأصبح من واجبات المجلس تقديم تقرير للقيصر بطرس عن كل الأمور. وحذر اعضاء المجلس من الرشوة والعادات القبيحة الذميمة المستهجنة، من مثل ملاكمة الاعضاء بعضهم مع بعض، أو الصياح في المجلس، وتلقيب بعضهم بعضاً بألقاب سافلة.

أنشأ بطرس كليات لتعليم الناشئة الحديثة ما يلزمهم في خدمة الوطن، حاذياً حذو جرمانيا وغيرها من الممالك (المتمدنة). فبنى عشر كليات لتعليم السياسة الخارجية ومبادىء الحرب وادارتها، وقواعد عمل البحرية، والمالية، والضرائب، والشريعة، والمعامل، والتعدين، والتجارة. وترجم عن اللغة السويدية وغيرها ما يلزم من الكتب لتعليم هذه العلوم والفنون، وجعل الاكفاء من المعلمين الوطنيين في تلك الكليات، وأحضر من الخارج ما يحتاجه لذلك. واستخدم كثيرين من سلاف بوهيميا وسيليزيا ومورافيا. وأرسل أربعين شاباً الى (كونغسبرغ) ليتعلموا (ادارة السياسة والمالية) وأعطى للكليات ملء الحرية بانتخاب رؤ سائها.

كانت (ادارة الحكم) كلها- قبل بطرس- في قبضة الاشراف وكبار الموظفين. فعمل بطرس على الغاء هذه الادارة. وقسم اقاليم المملكة الى (ولايات) وهذه الى (أقضية) وهذه بدورها الى (نواحي) وهكذا. . . وأقام ولاة وحكاماً لإدارة البلاد وفق أسس محددة وقواعد واضحة لا يجوز تعديها أو تجاوزها. ونظم شبكة من المراقبين في كل دائرة من دوائر الحكومة. وعمل على توحيد أسس الادارة، وتبسيط اجراءاتها بما يضمن

مصالح المواطنين ويؤمن راحتهم، وفرض النظام والأمن بقوة، وأمكن بذلك القضاء على اعمال الشغب والفوضى غير المشروعة. ونظم مجالس البلديات. وفوض للشعب حق انتخاب حاكم المدينة وتعيينه، الى غير ذلك من الاصلاحات التي أسهمت بتطوير الحركة العمرانية في البلاد، ونظراً لجهل الموظفين الاغرار الذين أوكل اليهم بطرس العمل في اجهزة الدولة، وعدم معرفتهم بالانظمة والقوانين. فقد عين (بطرس) مراقبين يتابعون كل شيء، حتى كانت الأمور تسير وكأن يداً خفية تدير كل شيء في كل مكان.

اهتم بطرس بتنظيم ادارة الشرطة (البوليس) وجعل لها نظاراً ـ مراقبين ـ وجعل لكل عشرة بيوت في كل مدينة مأهولة مفتشاً، وفرض على كل من تجاوز العشرين من عمره أن يكون بمثابة حارس. وكانت مسؤولية وقوع الشغب أو الاخلال بأمن المواطنين والمحافظة على النظام في المدن، تقع على عاتق الولاة والحكام العسكريين وكبار الموظفين. ونظمت العاصمة تنظيماً جيداً. وفرض على كل بيت تنظيف ما يخصه من الشارع العام، وتفرض العقوبات على كل مخالف. وأقام بطرس المستشفيات للمرضى، والمصحات ـ البيمارستانات ـ للمعتوهين عقلياً. وفرض الضائب على كل شيء ـ حتى اللحى ـ فكان صاحب اللحية يدفع ضريبة سنوية تتراوح من (٣٠) الى (١٠٠) روبل. واذا امتنع صاحب اللحية عن الدفع حلقت لحيته رغماً عنه. ومنع إدخال الصودا والقلي والزفت وسواها مما يستخرج من غابات الشمال ـ إلا بعد دفع ضريبته ـ فزاد بذلك دخول الحكومة من الضرائب على هذه الأصناف خلال فترة (١٥) سنة، أي من سنة (١٧١٠) الى سنة (١٧٢٥) من ثلاثة الى عشرة ملايين روبل.

أعاد بطرس الكبير تنظيم الجندية، فحل فرق (الاسترلتش). وشكل افواج المشاة والفرسان وألبسها الثياب العسكرية المشابهة للازياء الاوروبية. ورفع عدد أفراد جيشه الى (٢١٠) آلاف جندي نظامي ـ ما عدا القوزاق والقبائل الشرقية التي كانت تمده بجيش لا يحصى عدده عند الحاجة. وكذلك البحرية فإنه اعاد تنظيمها، فصار عنده (٤٨) سفينة من الطراز الأول و (٨٠٠) من الطراز الثاني والثالث، وبلغ عدد بحارتها (٢٨) ألفاً.

كان بطريرك روسيا (أدريان) مناوئاً لأعمال بطرس التي كان يسميها (اصلاحات) فلما مات هذا البطريرك في سنة (١٧٠٠) منح بطرس للبطريرك (استفان جافور) لقب (مدير العرش البطريركي). وعزم على الغاء البطريركية، وجعل ادارة الكنيسة بأيدي جماعة، عوض الفرد الذي اذا تفرد بالسلطة أمكنه أن يستبد ويقوى كما كان يحدث كثيراً. فأنشأ (المجمع المقدس) أو (الستينودس) وفوض اليه أمر إدارة الكنيسة، اذ بدا له أن ذلك أفضل للسيطرة على البلاد، ذلك أن العامة كانت تظن أن سلطة البطريرك مساوية لسلطة القيصر أو فوقها، فاذا ما حدث اختلاف بينهما، وقفت العامة الى جانب البطريرك، زاعمين بذلك أنهم ينصرون الله. وطالما أظهر البطاركة من العتو والاستبداد بمناصرة الشعب لهم، ما لا يحصى. فعمل بطرس على الغاء تلك الوظيفة التي قد تقلق العرش. وجعل للاساقفة حدوداً معينة لا يحق لهم تجاوزها. وأصبح هو القيصر الوحيد في روسيا كلها، وهو المسيطر على كافة مراكز القوى. ولكن وبالرغم من ذلك، فان بطرس لم يتجرأ على انتهاك حرمات الاديرة أو أن يمس أملاكها. لأنه كان يخشى شر العاقبة. وعمل مقابل ذلك على تنظيم أمور الكنيسة. فحذر على الروس الدخول في الرهبانية قبل بلوغ الثلاثين من العمر، ووضع للرهبان أنظمة منها: أن يشتغل كل واحد منهم بصناعة يختارها، وحذر عليهم الكتابة واقتناء الحبر والاقلام. وجعل خدم المدارس والمستشفيات منهم، وجعل الاديرة ملاجىء للعجزة من الجيش. في حين اشترط على الاساقفة أن يكونوا رجال علم وفكر.

وبقي اهتمام بطرس الاكبر بتطوير الصناعة والتجارة يفوق كافة اهتماماته، فأمن طرق التجارة مع الغرب والشرق، ونظم استيراد ما تحتاجه بلاده، كما ضمن تصدير محاصيلها، وضمن بذلك أرباحاً استخدمها في دعم مشاريعه العمرانية وتأمين متطلبات بناء دولته.

وكان في جملة اصلاحات بطرس- التي كان يفاخر بها- أنه أفسح المجال أمام طالب الزواج حتى يعاشر زوجته قبل الزواج، مخالفاً بذلك التقليد القديم، وقال: «**انه لما كان الزواج المسيحي- الارثوذكسي- لا يسمح بفسخه أو ابطاله، فمن الجور والجهالة أن يتزوج شاب بفتاة يجهلها وتجهله**».

واستطاع القيصر بطرس، التغلب على كل الصعوبات التي جابهت اصلاحاته، وكان همه الاكبر هو اقناع شعبه بفضائل اصلاحاته، وتعليم مواطنيه المدنية الحديثة- الغربية- وكان يخشى أن يموت قبل أن يبلغ أمنيته وهي تعويد شعبه على التكيف مع العادات الحديثة، والسير على طريق التمدن. فأفسح المجال للكل من أجل التعلم، وفرضه فرضاً على ابناء الأشراف والكهنة، إذ كان يعلم أنهم سيكونون قادة للشعب. وأنشأ المدارس الابتدائية في كل مكان. وأرسل خريجي المدارس الرياضية في (بيترسبورغ) ليتولوا التدريس فيها.

وكانت صناعة الطباعة غير معروفة تماماً، وهي محصورة في طبع الكتب الكنسية والدينية. وكانت اللغة السلافية القديمة صعبة المأخذ، فأوجد بطرس أبجدية جديدة وهي المعروفة (بالابجدية السياسية). واستورد آلات طباعة جديدة وحروفاً ومساكب وروج لتلك الصناعة في بلاده، حتى نافست فيها أحسن ممالك أوروبا. وأنشأ أول صحيفة في بلاده أطلق عليها اسم (بيترسبورغ- غازيت).

أسس بطرس الكبير في سنة (١٧٠٣) مدينة (بيترسبورغ- أو بطرسبورغ) على نهر النيفا الذي يخرج من البحيرات الشمالية العظمى، وينقسم الى أربعة فروع وهي المعروفة (بنافا العظيم) و (نافا الصغير) و (نافكا العظيم) و (نافكا الصغير) ويمر بها غير ذلك من الأنهار الصغيرة، واذا جمعت المياه الجارية في المدينة فيكون المجموع ثمانية عشر مجرى وبحيرة، وثماني أقنية، وتسع عشرة جزيرة، وأصبحت تلك الأدغال والأحراج والقفار مدينة زاهية زاهرة. وزين كنيسة القلعة بالعاج من حفر يده، وعلق على جدرانها الأعلام التي ربحها في حروبه مع السويد. وفيها كرس بطرس يخته (جد الاسطول الروسي). وخالف التقليد، فنقل مدفن الملوك من كنيسة (القديس ميخائيل) في موسكو، الى كنيسة (بطرس) و (بولس) في عاصمته الجديدة. ولكي يجعلها أعظم مدن روسيا على الاطلاق، فقد حذر على أي أنسان أن يبني بيتاً من الحجر إلا فيها. واضطر كل من كان عنده (٥٠٠) مزارع، الى بناء بيت من الحجر لا يقل عن طابقين. وكان الفقراء في أحيائهم الخاصة يجمعون من ذواتهم مالاً لبناء بيت من الحجر في حيهم.

وفرض على كل سفينة تأتي الى مياه (بيترسبورغ) أن تحضر معها عدداً من الحجارة لأنها كانت قليلة الوجود. وجعل دار الحكومة لا يبلغ إليها إلا بعبور المياه. فكثرت بذلك السفن، وتوافرت الحجارة المستوردة الى المدينة. وكان هذا التطور على حساب المدينة القديمة (موسكو) التي أخذت في احناء رأسها أمام العاصمة الجديدة.

اصطدم بناء العاصمة الجديدة بالكثير من المقاومة، وانطلق خصوم بطرس في إثارة الشائعات والقول: «بأن تلك المدينة الكافرة ـ الهرطوقية ـ والتي شيدت بأيدي الأجانب، ستباد غرقاً؛ وستعود موسكو عاصمة للبلاد بعد موت بطرس» غير أن ذلك لم يضعف من تصميم القيصر بطرس بقدر ما زاده عناداً على بذل المزيد من الجهد حتى صارت (بيترسبورغ) مركز الاصلاح العام لروسيا كلها. وكانت تختلف عن موسكو الغنية بآثارها التي تعيد الى اذهان الناس ذكريات الماضي، وتشدهم الى المحافظة على التقاليد. وهكذا فبينما كانت موسكو تمثل الماضي، أصبحت بيترسبورغ تمثل المستقبل، وقد مارس الأجانب في العاصمة الجديدة دوراً بارزاً كان من المحال عليهم الاضطلاع به في العاصمة القديمة.

تابع بطرس الاكبر خلال ذلك كله تطوير مشاريعه الخارجية، مستفيداً من غياب خصمه شارل الثاني عشر، وإقامته في (بندر)[٥٤] طوال الفترة من سنة (١٧٠٩) الى سنة (١٧١٩). فعمل على ارغام ملك بولونيا (لازكتسكي)[٥٥] الذي بقي محافظاً على تحالفه مع شارل الثاني عشر، للتخلي عن عرشه، وان يعتزل الى (بومارينا) وأعاد

---

(٥٤) بندر: (BENDER) وهي معروفة اليوم باسم بندريس BENDERIS كانت مدينة اسلامية تابعة لحكم العثمانيين وهي تابعة اليوم للاتحاد السوفييتي (مولدافيا) على نهر الدنيستر.

(٥٥) لازكتسكي: (LECZINSKI) أو (LESZCZYNSKI) اسم عائلة بولونية من بوزناني (POSNANIE) واليها ينتسب الملك البولاني (ستانيسلاس: STANISLAS) والملكة ماري زوجة لويس الخامس عشر.

١ـ موسكو. ونهر موسكوفا. حيث يظهر قصر الكريملين التاريخي في الخلف وكتلة الابنية الحديثة في الامام.

٢ـ نهر (نيفا) وميناء (لينينغراد) وقد شيده بطرس الاكبر.

(٣) خليج بيترو بافلوفسكي الصغير في كامشاتكا (في الخلف).

(٤) يالطا وساحل القرم (في الخلف).

(أوغسطس السكسوني) الى بولونيا. واستولى - بطرس - على ليفونيا واشسونيا وجزءاً من فنلندا. وهكذا وسع الطريق أمامه لاكمال سيطرته على البلطيق. وفي سنة (١٧١٠) استولى على ريغا ودزاميوند وبيرنو وريغال وفيبورغ وككسولم. ولم يتمكن من الاستيلاء على كورلاند (الولاية التابعة لبولونيا). ولكنه مهد السبيل لاتحادها مع روسيا عن طريق تزويج دوقها بالاميرة (حنة) ابنة ايفان- شقيق بطرس-.

٦- هزيمة بطرس على ضفاف نهر بروث.

أدى استيلاء بطرس الاكبر على (آزوف) الى حدوث هزة عنيفة في دار الخلافة العثمانية، إذ بقي البحر الاسود طوال عهود كثيرة وهو بحيرة اسلامية- تركية- ولهذا فلم يكن من الغريب أن تندلع الثورة في عاصمة الخلافة (سنة ١٧٠٣) ويتم استدعاء السلطان (مصطفى الثاني) للمثول أمام الديوان. فلما رفض السلطان الطلب، تقرر عزله وتعيين احمد الثالث سلطاناً جديداً في دار الخلافة. ووضع السلطان احمد (١٧٠٣- ١٧٣٠) كل همه في الانتقام لهزيمة (آزوف) واستعادة ما فقدته تركيا من الممتلكات.

في هذا الوقت ذاته، كانت انتصارات بطرس قد اثارت كثيرا من المخاوف في الممالك الغربية فانطلق معتمدو السويد وستنسلاس ووسلارس وسفير فرنسا وخان التتار في تحريض (الريغانيين) على الحرب.

توافرت المعلومات لدى بطرس عن تدهور الموقف في الشرق، كما علم ان سفيره في تركيا محجوز عليه في (السبعة أبراج) وأن الباب العالي يحشد قوات ضخمة في سهول (أدريانوبل). فقرر عدم اتاحة الفرصة أمام الاتراك للامساك بالمبادأة وأشهر الحرب ضد تركيا. وبدأ في نقل ثقل قواته من مسرح البلطيق الى حدود دار الخلافة العثمانية.

استطاع بطرس، استثارة مشاعر الروس كلهم ضد تركيا، فاستقبلوا اعلان الحرب بالبهجة، وباتوا وهم يعتقدون أنهم زاحفون لتحرير اخوانهم مسيحيي المشرق من عبودية الاتراك المسلمين، وأنهم سيدمرون أعداء السلاف القدماء. وكان بطرس قد



١ـ موسكو ـ ونهر موسكوفا، حيث يظهر قصر الكريملين التاريخي في الخلف وكتلة الابنية الحديثة في الأمام



٢ـ نهر (نيفا) وميناء (لينينغراد) وقد شيده بطرس الاكبر



٣- خليج بيتروبافلوفسكي الصغير في كامشاتكا



٤- يالطا وساحل القرم

نجح ايضاً في استثارة سكان (مولدافيا)(٥٦) والصرب والجبل الاسود واليونان ضد الاتراك المسلمين. وبات هؤلاء ينتظرون قيام بطرس بتنفيذ وعوده لتحريرهم.

وقع بطرس الاكبر في مجابهته لحرب العثمانيين (سنة ١٧١١) بنفس الخطأ الذي ارتكبه خصمه شارل الثاني عشر عندما شن الحرب ضد روسيا (سنة ١٧٠٩). إذ انه اعتمد على مساعدة غير مؤكدة من تلك البلدان التي كانت قليلة السكان، كما أنه لم ينتظر وصول قوات الدعم التي وعده بها حليفه (أوغسطس السكسوني) والمكونة من (٣٠) ألف محارب. وهكذا تحرك بقواته من البلطيق شمالاً وتوجه جنوباً، فقطع نهر الدنيبر ودخل مولدافيا، فوجدها صحراء مقفرة تكاد تكون خالية من السكان، وقد أتى الجراد على ما تبقى فيها من المواد التموينية. وفي الوقت ذاته ، أعلن حاكم مولدافيا انحيازه الى السلطان. وعندما وصل بطرس الى ضفاف نهر (بروث)(٥٧) لم يكن جيشه يزيد على (٣٠) ألفاً من الجنود الذين استنزف الجهد والمسير الطويل قدرتهم، وقضى الجوع على مقاومتهم. وفي هذا الوقت كان هناك (٢٠٠) ألف جندي تركي قد أحاطوا بنهر بروث، وطوقوا قوات الغزو الروسية. وقد حاول الجيش الروسي مقاومة القوات (التركية- والتتارية) غير أن مقاومتهم كانت ضرباً من العبث. إذ لم تلبث مضارب الجيش الروسي- خيامه- أن غصت بالجرحى من الرجال والنساء. وانتشرت روح الذعر والهلع فسيطرت على كافة المقاتلين الروس. وهنا تدخلت الامبراطورة (كاترين) فأضرمت نار الحماسة في نفوس الجند بفضل ما أظهرته من الحزم والشجاعة. وجمعت كل ما كان في معسكر الروس من حلى وجواهر وأرسلتها هدية (للصدر الأعظم- الذي كان يتولى ادارة الحرب) . كما ألحت على القيصر بطرس أن يرسل مفاوضين من قبله الى

---

(٥٦) مولدافيا: (MOLDAVIE ou MOLDOVA) مقاطعة على الدانوب، اتحدت سنة (١٨٥٩) مع فالاشي (VALACHIE) وشكلت الدولة الرومانية التي استمرت حتى سنة ١٩١٨ وتتاخم سهولها في الشرق جبال الكربات. ويمر منها نهر سرت : SIRET وعاصمتها ياشي (IASHI). ويقع قسم من مولدافيا على الضفة اليسرى لنهر الدنيستر (وقد شكل هذا القسم جمهورية سوفييتية منذ سنة ١٩٢٤ مرتبطة بأوكرانيا).

(٥٧) بروث: (PRUT) نهر ينبع من جبال الكربات، ويصب في نهر الدانوب ويفصل مولدافيا عن رومانيا، وطوله (٨١١) كيلومتراً.

معسكر الاتراك للتفاوض معهم على شروط مناسبة يمكن لها انقاذ الجيش الروسي من المأزق الذي بات يتهدده بالفناء. وأظهر القيصر بطرس استعداده للتضحية بكل ما يطلبه الاتراك، على أن يضمنوا له المحافظة على ملكية آزوف وليفونيا حتى واستونيا وكارليا. وأظهر (بطرس) تمسكه بصورة خاصة (بانغريا) ورغبته في المحافظة عليها، واعتباره أن خسارتها معادلاً لخسارة عاصمته الجديدة. وأكد انه مستعد لخسارة بسكوف وعدم خسارة انغريا. ومقابل ذلك، اعلن بطرس عن استعداده للتسليم بمسألة بولونيا. وأعلن أيضاً عن رفضه للاستسلام حتى لو أدى الأمر لمتابعة الحرب حتى فناء القوة الروسية عن آخرها. وفي النهاية- أمكن التوقيع على معاهدة بروث- التي سمحت بانسحاب القوة الروسية في شهر تموز- يوليو- سنة (١٧١١). وقد أظهر الصدر الاعظم من التساهل ما لم يكن يتوقعه القيصر بطرس، ذلك لأن الصدر الاعظم كان يرغب في إقامة علاقات حسنة مع بطرس الاكبر، وعدم إذلاله بشروط شائنة فاكتفى (باسترجاع آزوف) وهدم قلاع وحصون (طيغان - أو تاغا نروغ كما باتت معروفة) وتدمير الاسطول الروسي في البحر الاسود والذي كلف القيصر بطرس جهوداً جبارة وأموالاً طائلة. وكذلك عدم التعرض لملك السويد (شارل الثاني عشر) والسماح له بالعودة الى مملكته. ونفذ بطرس الشروط كلها واولها هدم قلاع (تاغا نروغ)[٥٨] وجدير بالذكر أن معاهدة (بروث) قد اثارت الفرحة في قلوب الروس جميعاً، غير ان بطرس خرج من المعركة مكتئباً حزيناً، إذ زحف كمخلص للعالم المسيحي فعاد بعفو من السلطان العثماني، فيه من الاذلال لكبرياء بطرس اكثر مما يحتمله. ولهذا فقد أخذ فوراً بالبحث عن مجال آخر يعوض فيه عن فشله، وينتقم لهزيمته.

---

(٥٨) تاغانروغ: (TAGANROG) مدينة في الاتحاد السوفييتي- روسيا- تقع على بحر آزوف وكانت منذ القديم تابعة لحكم الاتراك العثمانيين وتحمل اسم (طيغان).

٧ـ استئناف الصراع على مسرح اوروبا.

ما ان انسحب بطرس بجيشه من ضفاف نهر بروث حتى عاد بها متوجهاً نحو الشمال. وأفاد من انصراف فرنسا لخوض الصراع المرير ضد فرنسا (سنة ١٧١٢ ـ ١٧١٣) فتحالف مع الدانمارك وساكسونيا لطرد السويديين من (بوميرانيا)[٥٩] وأقلع الاسطول الروسي وعدده (مائتا سفينة) في شهر أيار ـ مايو ـ ١٧١٣ بقيادة الجنرال (ابركسي) ومعه بطرس الاكبر وهو يعمل معاوناً للأميرال. فغادر مياه نافا، ليظهر بصورة مباغتة أمام عاصمة فنلندا (هلسنغفورس ـ أو هلسنكي). وأمكن للقوات الروسية احتلالها بسرعة، ثم احتلت هذه القوات (آبو) وأرسلت مكتبتها الثمينة الى (بيترسبورغ ـ لينينغراد). وسار الجيش الروسي لمحاربة القوات السويدية في (تاسرفسورس).

عمل بطرس الأكبر في السنة التالية (١٧١٤) على تطوير اعماله القتالية، واستطاع الاسطول الروسي الحاق الهزيمة بالاسطول السويدي في (هانكوك) واحتلت القوات الروسية (جزيرة آلاند)[٦٠] وهددت عاصمة السويد ذاتها (استوكهولم) إذ لم يبق بين تلك القوات واستوكهولم اكثر من (١٥) ميلاً. وأخيراً استولت القوات الروسية على (لينسلوت) وبذلك سيطرت روسيا على (فنلندا) سيطرة تامة.

حاول ملك السويد (شارل الثاني عشر) مجابهة هذه الهجمة الروسية الجديدة، فأسرع من (بندر) لصد هجمات العدو، غير أنه لم يتمكن حتى من حماية (ستارسلندا) و (ويمر). وانضم ملك بروسيا الى قيصر روسيا، فسقط آخر حصن كانت تمتلكه السويد في (بوميرانيا). ووجد ملك هانوفر وملك انكلترا أن الفرصة باتت مناسبة للحصول على

---

(٥٩) بوميرانيا: (POMERANIE). اقليم بولوني يحده من الشمال بحر البلطيق. ويمكن التمييز بين بوميرانيا الشمالية: (فويفويدي دو سزكزيكن: VOIVODIE DE SZCZECIN وهي تقع في الغرب ثم (بوميرانيا مازوفيين: VOIVODIE D'OLSZTYN) وهي تقع الى الشرق. ويفصل نهر الفستولا بين طرفي بوميرانيا الشرقي والغربي.

(٦٠) جزيرة آلاند: (ILES D'ALAND) أو جزيرة (آهفونانما: AHVENANMAA) كما باتت معروفة حديثاً. وهي تقع في الارخبيل الفنلندي في بحر البلطيق.

غنيمة من املاك السويد المنهارة، فاحتلا (واردن) التي كانت من املاك السويد على نهر الويسر. ولما فقدت السويد كل املاكها في (جرمانيا) الغيت (معاهدة ويستفاليا)[٦١] وأصبحت السويد خارج ميزان القوى.

لم تعد (حرب الشمال) حرباً روسية- سويدية بعد ذلك التوسع الكبير الذي أحرزته روسيا، فقد امتد لهيب الحرب من شرقي البلطيق ليصل الى قلب اوروبا. وظهر اضطراب كبير في موازين القوى على الساحة الاوروبية، مما أدى الى ضياع التوازن التقليدي. وبرز الجيش الروسي لأول مرة في تاريخ روسيا في شمال جرمانيا. وكان بطرس قد زوج ابنة أخيه ايفان الى (دوق كورلاند) وها هو الآن يزوج أختها الى (دوق مكلنبرغ) ويبسط نفوذه على (مكلنبرغ) وذلك عن طريق دعم الدوق ضد معارضيه الأشراف واخضاعهم على الطاعة. وكاد الروسيون يمتلكون شمالي جرمانيا الذي كان قد دخل في حوزة السويديين منذ اكثر من قرن. وبات حلفاء القيصر بطرس يخشون مطامعه غير المحدودة. ورغب أشراف (مكلنبرغ)[٦٢] في الانتقام منه، فشرعوا في تحريض الشعب ضده حيث أمكنهم. وقد نجح (برنسدورف) في حمل (جورج - دوق

---

(٦١) معاهدة ويستفاليا: (TRAITESDE WESTPHALIE) هي المعاهدة التي تم ابرامها في سنة (١٦٤٨) في (مونستر: MUNSTER) و (اوزنابروك: OSNABRUCK) بين الامبراطور الجرماني وفرنسا والسويد لوضع حد نهائي لحرب الثلاثين عاماً. وبموجب هذه المعاهدة حصلت الامارات الالمانية الشمالية التي وسعت حدودها، على الحرية الدينية- البروتستانتية- كما حصلت على حق التحالف مع الدول الخارجية. وكان ذلك فشلاً (لآل هبسبورغ) الذين حاولوا توحيد المانيا تحت سلطتهم وحصلت فرنسا على (الالزاس) فأكدت بذلك حق (الاسقفيات الثلاث LES TROIS - EVECHES) التي كانت تمثل حكومة فرنسا واقليمها القديم والذي كان يتألف من مجموعة مدن تقع على ارض اللورين، وهذه المدن هي (فردان: VERDUN) و (ميتز: METZ) و (تول: TOUL) مع بقية الاراضي والقرى التابعة لها. وكان هنري الثاني قد انتزعها من ملك أسبانيا (شارلكان) سنة ١٥٥٢.

(٦٢) مكلنبرغ: (MECKLEMBOURG) بلاد في المانيا الى الشمال من (براندبورغ: BRANDE BOURG) وقد بقيت دوقية كبيرة حتى سنة (١٩١٩) ثم اصبحت جمهورية اتحادية سنة (١٩٣٤) من (مكلنبرغ شويرينغ MECKLEM- BOURG - SCHWERIN) و (مكلنبرغ ستريليتز: MECKLEMBOURG- STRELITZ) وهي تشكل حالياً قسماً من بوميرانيا الواقعة على الضفة اليسرى من الاودر اقليماً تابعاً لألمانيا الشرقية عاصمته (شويرن: SCHWERIN)

هانوفر)[٦٣] على الغاء معاهدته مع القيصر. كما نجح اثنان آخران من أشراف مكلنبرغ في اقناع ملك الدانمارك باغلاق أبواب (وسمار)[٦٤] في وجه القيصر وأسطوله. واذ ذاك شعر بطرس بحاجته الى حلفاء وانصار من بين الاوروبيين، بعد أن أصبحت قضية التوسع الروسي قضية (أوروبية). وأفاد البارون (غورتز)[٦٥] من مجموعة هذه الظروف لاجراء مصالحة بين ملكه شارل الثاني عشر وبين بطرس الذي كانت مساعدته ضرورية في تلك الفترة من أجل خلع ملك انكلترا وتنصيب آخر من (آل ستيوارت) مكانه. وكان القيصر بطرس يتوق الى موالاة فرنسا فبعث في سنة (١٧١١) بسفيره (جورج فولكوف) الى بلاط لويس الرابع عشر لهذا الهدف. فأجاب لويس: «انه مقيم على تحالفه مع شارل ملك السويد، وملتزم بوعده لمساعدته. ولو أن شارل قد أخلف بوعده ولم يخلص لتحالفه مع فرنسا».

٨ـ زيارة بطرس لباريس ونتائجها.

بدأت مرحلة جديدة من التطور في العلاقات الروسية- الافرنسية بوفاة الملك لويس الرابع عشر في سنة (١٧١٥). إذ كان الملك لويس الخامس عشر صغيراً، فكان (فيليب أورليانز)[٦٦] هو الوصي على العرش. وقد أعاد بطرس محاولته للاتصال بالبلاط الافرنسي، فأرسل له معتمده لدى البلاد تأكيداً بأن الوصي على العرش الافرنسي

(٦٣) جورج دوق هانوفر: (GEORGES - I) من مواليد اوزنابروك، (OSNABRUCK) (١٦٦٠- ١٧٢٧) حكم هانوفر، ثم أصبح ملكاً لأنكلترا سنة (١٧١٤) وهو أول الهانوفريين الذين حكموا انكلترا. والذين لا زالت سلالتهم تحكم حتى اليوم.

(٦٤) وسمار : (WISMAR) مدينة المانية لها خليجها على بحر البلطيق، وهي في اقليم مكلنبرغ.

(٦٥) غورتز: (GOERTZ) واسمه جورج ـ هنري : (GEORGES - HENRI) وزير ملك السويد شارل الثاني عشر، وهو من مواليد فرانكوني : (FRANCONIE) (١٦٦٨- ١٧١٩) وكان واحداً من اكثر الذين أخلصوا في خدمة الملك شارل وحافظ على ولائه له حتى النهاية.

(٦٦) فيليب أورليانز: (PHILIPPE III D'ORLEANS) هو ابن فيليب الثاني- شقيق الملك لويس الرابع عشر- من مواليد. سانت كلود: (SAINT - CLOUD) (١٦٧٤- ١٧٢٣) تولى الحكم في فرنسا خلال مرحلة وصايته على الملك لويس الخامس عشر (من سنة ١٧١٥- الى سنة ١٧٢٣).

يحمل له نوايا طيبة. مما زاد من آمال بطرس في امكانية عقد معاهدة متينة مع دولة اوروبية عظمى. كما كان بطرس يأمل في ترويج ابنته (اليزابيت) من ملك فرنسا الشاب لويس الخامس عشر. غير أن بطرس استهل زيارته بتظاهرة سياسية، حيث أظهر تصميمه على زيارة فرساليا و (زوتوف)(٦٧).

قام القيصر بطرس بزيارته لفرنسا في سنة (١٧١٧). ولم تكن الزيارة في هذه المرة مشابهة في شيء لزياراته القديمة. فهو الآن ليس ذلك الأمير الشاب القليل الخبرة في قواعد المدنية والحضارة الغربية، أو أميراً لبلاد مجهولة، بل انه اليوم يمثل قائداً فاتحاً لبولتافا وهنكل وسواهما. وهو حاكم البلطيق وشمالي جرمانيا، والامبراطور (التقدمي) والمؤسس لعاصمة جديدة تضاهي عواصم دول الغرب. وباعث أمة اوروبية وليست مجرد دولة آسيوية كما كانت من قبل. وقد كتب أحد الافرنسيين عن بطرس:

«لقد أذهل القيصر مدينة باريس بمعارفه الفائقة، بكل ما يتعلق بالحكم والادارة. وشؤون التعليم والشرطة- البوليس- وكل ما حدث بعد ذلك، جاء مصداقاً لاتساع أفقه وبعد نظره وحنكته السياسية. ولا يسع الناظر اليه الا احترامه واكرامه. وخلاصة القول: انه يجمع من الصفات التي يندر توافرها في شخص واحد».

قام بطرس الاكبر اثناء اقامته في العاصمة الافرنسية بزيارة الملك لويس الخامس عشر مع زيارة الوصي على العرش (فيليب). وكان الأمر الواضح هو أن بطرس الاكبر لم يظهر خلال زيارته اهتماماً كبيراً بظواهر الترف والمفروشات الثمينة وأدوات الزينة الباهرة. بل انه صرف كل اهتمامه الى البحث والدراسة والاستقصاء في كل ما يتعلق بامور الادارة والتجارة والعلوم والفنون العسكرية. ولم يحفل بزيارة الأشراف وذوي المناصب السامية، ولكنه قام بزيارة حوانيت صانعي العربات والحدادين والمستشفيات، وأكل من طعام المرضى (الحساء) وشرب نخبهم، وكان يلاطفهم بملامسته اكتافهم، والربت عليها برفق، والتعامل معهم وكأنهم أصدقاؤه. ومما أخذ بمجامع قلبه بصورة

---

(٦٧) زوتوف: (ZITTAU) مدينة المانية في الساكس.

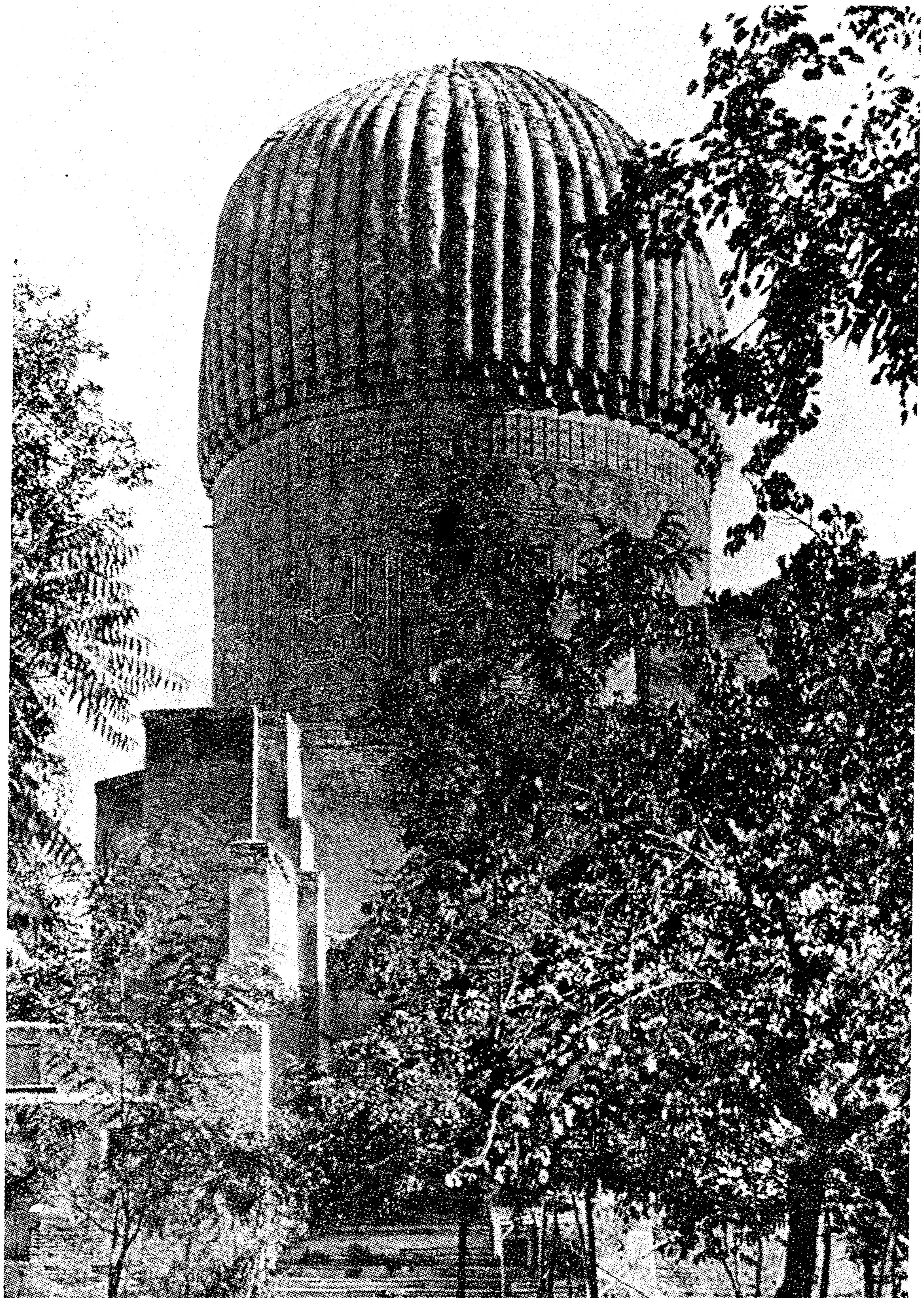
خاصة طريقة عمل التبستري (الغوبلان) والمرصد الفلكي وحديقة الملك ومجموعات النباتات المختلفة والآلات الميكانيكية وغير ذلك. وقد وضعت الحكومة الافرنسية ميداليات خاصة تذكاراً لزيارته. وحضر اجتماع الاكاديمية العلمية التي انتخبته عضواً فيها. ولما أرته خارطة مملكته أصلح بيده خطأ وقع فيها. غير أن الأمور التي كان يقصدها أو التي كانت السبب الرئيسي لزيارته، لم تصل الى ما كان يرغبه لها من النجاح. وكان من أول أهداف زيارته اقامة تحالف مع فرنسا ضد جورج الأول ملك انكلترا، غير أن محالفة فرنسا مع انكلترا كانت حجر الزاوية في سياستها الخارجية. وقد قال (سان سيمون)[٦٨] في ذلك:

«كانت رغبة القيصر بطرس في التحالف مع فرنسا، قوية وثابتة، ولم يكن ما هو أفضل من ذلك لتجارة فرنسا ولموقفها تجاه جرمانيا والشمال وكل اوروبا. وقد استطاع بطرس اثارة قلق انكلترا ومخاوفها تجاه تجارتها. كما أصيب الملك جورج بالخوف على املاكه في جرمانيا. وليس هناك من ينكر ان نفوذ بطرس كان عظيماً في أوروبا وآسيا، فلو حالفته فرنسا لاستفادت مادياً وتجارياً وسياسياً. وقد اكتشفنا خطأنا بعد فوات الأوان، إذ أن انكلترا هي التي صورت لنا روسيا بخلاف الحقيقة، فأبعدت عنا المنافع التي كان باستطاعة بلادنا ـ فرنسا ـ الحصول عليها، لو أنها تحالفت مع روسيا».

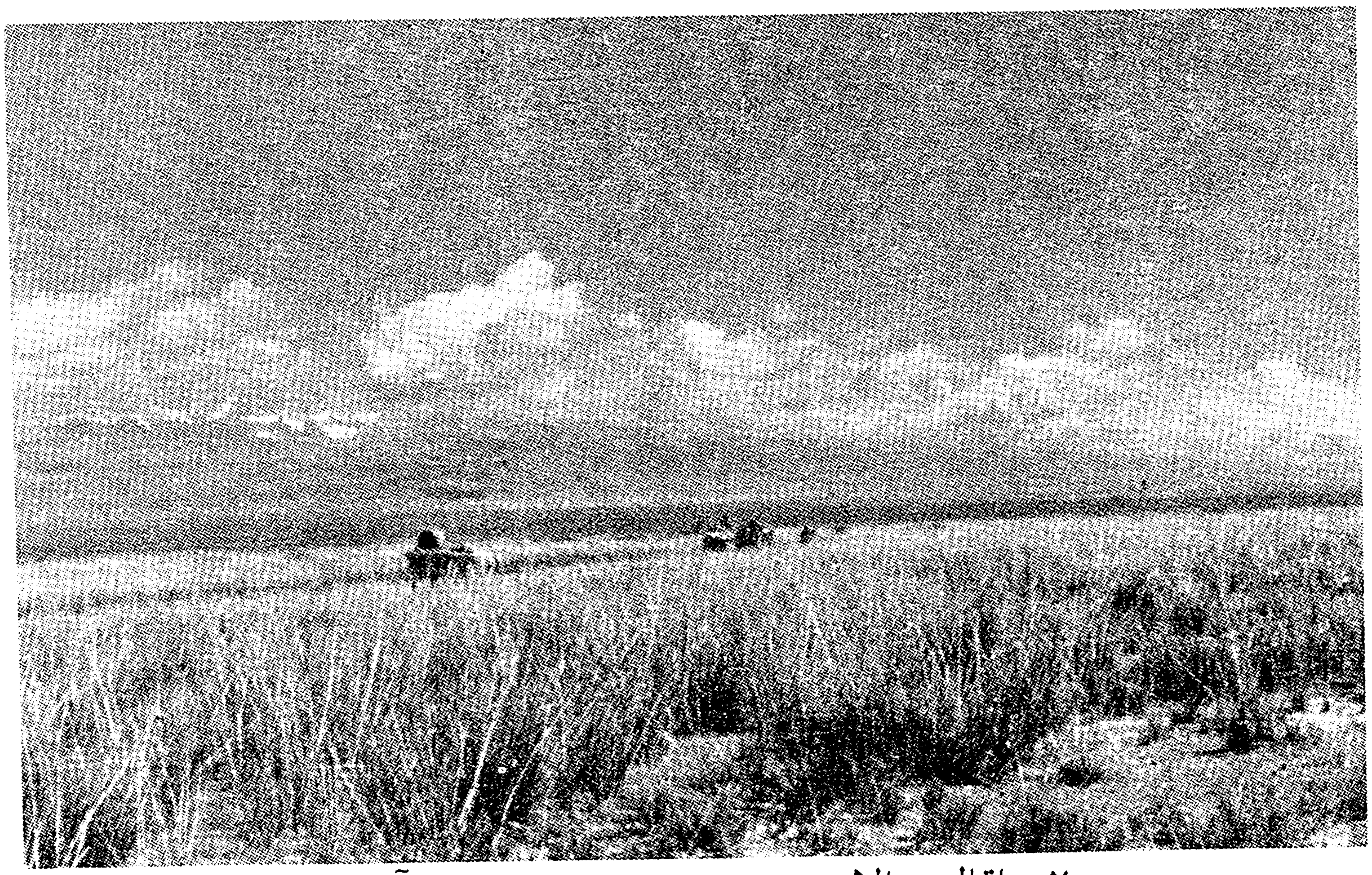
رجع بطرس الاكبر الى بلاده، وعلى الرغم من فشله بإقامة تحالف مع فرنسا، الا أن ثقة القيصر بطرس بالوصي على عرش فرنسا ووزيره (ديبوا)[٦٩] بقيت ثابتة وقوية،

(٦٨) سان سيمون: (SAINT SIMON, LOUIS DE ROUVROY - DUC DE) كاتب فرنسي، من مواليد باريس (١٦٧٥ـ ١٧٥٥) مؤلف مذكرات شهيرة عن الفترة من سنة ١٦٩١ حتى سنة ١٧٢٣. وقد ضمنها آلاف الأحداث الشهيرة في حياة البلاط في عصره. كما صور فيها اعمال الشخصيات البارزة خلال تلك الفترة. ورسم لوحة صادقة لها. ولو أنه كان متحيزاً بحكم انتمائه لطبقة النبلاء.

(٦٩) ديبوا: (CARDINAL GUILLAUME DUBOIS) وزير أثناء فترة وصاية الدوق فيليب دورليان على عرش فرنسا. عاش في الفترة (١٦٥٦ـ ١٧٢٣) طموح وجشع لامتلاك السلطة. وبرهن على أنه ديبلوماسي رائع. حيث عقد حلفاً مع انكلترا وهولندا ضد اسبانيا. وأصبح رئيساً للوزراء سنة ١٧٢٢.



١ ـ قبر (تيمورلنك) في سمرقند . وقد وضع بطرس اسس سياسة التوسع التي أدت الى انتزاع اقاليم ما وراء نهر سيحون وجيحون من قبضة المسلمين (خضعت سمرقند للروس سنة ١٨٦٨) وتظهر الكتابة العربية واضحة في الصورة .



٢ـ اقاليم الاستيب عند سفوح جبال (آلتاي)



٣ـ (قصر الحدائق أو (باكشي ساراي) وهو قصر خان التتار الذي شيد سنة(١٥٠٣) وفيه (ينابيع الدموع) التي وصفها بوشكين في كتاباته

الأمر الذي ساعد على عقد (معاهدَة امستردام التجارية بين فرنسا وروسيا) سنة ١٧١٧ - اي بعد عودة بطرس الى بلاده مباشرة- وأعلنت كلتا الدولتين، انهما تعاهدتا على ضمان معاهدة (اوتريخت) لحفظ السلام في المستقبل لاقاليم الشمال. ووضعت اساس معاهدة دفاعية بينهما للنظر فيما يجب أن تفعلاه متحدتين. وابتدأت الاتصالات الرسمية بين العاصمتين (باريس) و (بيترسبورغ). وتم تبادل السفراء بين الدولتين. كما أجريت اتصالات - اكثر من مرة- بهدف تزويج اليزابيت من لويس الخامس عشر أو دوق بوربون أو من أي أمير آخر أفرنسي- من العائلة المالكة- وساعدت فرنسا روسيا في أمر الصلح مع السويد.

٩- الصفحة الاخيرة في حياة قيصر.

بدأت الأمور في السير على طريق الاستقرار لمصلحة القيصر بطرس. ومضى (غورتز) في بذل جهوده لتأمين المصالحة على اسس ثابتة بين بطرس وخصمه شارل الثاني عشر. وتقرر اقامة اتصالات للمفاوضات في جزيرة (آلاند) حيث تولى (بروس واوسترمان) المفاوضات بتكليف من بطرس. بينما تولى (غورتز وغالينبرغ) المفاوضات بتكليف من شارل ملك السويد. وبينما كانت المفاوضات تسير بنجاح نحو نهايتها، قتل ملك السويد (سنة ١٧١٨) وثارت ثائرة الاشراف على الأثر، فخلعوا (هولستين غوتورب) ابن أخي شارل الثاني عشر عن العرش. وعرضوا التاج على (يولديكا ايليونور) اخت شارل الثاني عشر الصغرى وامرأة فريدريك (من هس كاسل) إذ حسبوها ألين عريكة وأكثر تعاطفاً معهم. غير أن ضعف السلطة وتعاظم قوة الاشراف، وظهور الخلافات الحادة بعضهم ضد بعض، أدى الى تفاقم الأزمة وتصعيدها. وبقيت السويد نهباً للفوضى ولكل انواع الاضطرابات الى أن استقر الأمر في قبضة الأشراف والاكليروس والشعب والفلاحين. ولكن سلطة الأشراف بقيت باستمرار هي السلطة الأقوى. فأرسل الأشراف طلباً باستدعاء (غورتز) ولما رجع تم تقديمه الى المحاكمة، وصدر الحكم عليه :"الاعدام. وفي الوقت ذاته ألغى الاشراف كل ما كان قد أبرمه من اتفاقات ومعاهدات باسم مملكة السويد. وأبرمت الهيئة الحاكمة في

السويد حلفاً مع (هانوفر) مخالفة بذلك سياسة (غورتز) ومصممة على متابعة الحرب مع روسيا، معتمدة في نهجها الجديد على دعم الاسطول الانكليزي. فما كان من بطرس إلا أن قبل التحدي الجديد، وأعلن الحرب على السويد (في سنة ١٧١٩) وقام بانزال قواته على سواحل السويد، فأحرقت هذه القوات مدينتين وتسعاً وعشرين قرية، حتى اتصل الحريق والدمار الى مسافة لا تبعد عن العاصمة السويدية باكثر من سبعة أميال فقط. وفي سنة (١٧٢٠) عاد بطرس لاستئناف الحرب من جديد، وتم انزال القوات في هذه المرة على مرأى من الاسطول الانكليزي المرابط هناك، والذي لم يحاول التدخل أو منع القوات الروسية من تنفيذ عملياتها.

وفي سنة (١٧٢١) طلبت الهيئة الحاكمة الصلح، فاحتفظ بطرس بملكيته لاقاليم (ليفونيا واشسونيا وانغريا وقسماً من فنلندا وكارليا) وهكذا تم صلح (نيشاد) الذي كان بمثابة انتقام لأيفان الهائل والكسي من لوفتش.

استمرت حرب الشمال (٢٢ عاماً) وانتهت بتحقيق كل ما كان بطرس الاكبر يطمح لانجازه. وإذ ذاك، شعر وللمرة الاولى، أن باستطاعته القاء العبء الثقيل الذي كان يرهق كاهله. فعاد الى بلاده يحمل لها بشائر انتصاره النهائي. وأمر بإقامة الاحتفالات التي تتناسب مع هذه المناسبة العظيمة. وفي هذه الاحتفالات «**ارتقى بطرس على منصة مرتفعة، وشرب نخب رعاياه. وعيدت روسيا كلها عيداً وطنياً لمدة اسبوع كامل. وكان القيصر في غاية البهجة والسرور، حتى أنه أحرق من البارود ما بلغت قيمته (١٢) ألف روبل. وارتدى بطرس ثوباً نفيساً، ورقص على المائدة، وأنشد الاناشيد الوطنية. واجتمع المجلسان الكنسي- الروحي- والزمني- الحكومي- وقررا- بالاجماع منح بطرس لقب (الاب الاكبر لروسيا) و (أب بلاده) و (امبراطور كل الروسية) وهكذا أصبح بطرس بن الكسي (بحسب انشودة معروفة عندهم) أول امبراطور في بلاد روسيا**». وهاك ما قاله بطريرك روسيا (فيومين بركوبوفتش) عن القيصر بطرس في احدى عظاته:

«كانت الرغبة الكبرى لبطرس هي في أن يجعل من روسيا مركز اتصال بين اوروبا

وآسيا فهاجم سواحل البلطيق وامتلكها. ولكن كان من الضروري أن يجد بدلاً من آزوف ويفتح على الأقل بحراً من البحور الشرقية. وكانت بلاد فارس- ايران- هي سلطانة بحر قزوين، غير أنها كانت نهباً للفوضى، لأن حاكمها كان غاية في الضعف والوهن، مما شجع العصاة على مهاجمته من كل مكان. وإذ تعرض التجار الروس في تلك الاصقاع لاعمال السلب والنهب، اغتنم بطرس تلك الفرصة. وامتلك (دربانه) وقاد الجيش بنفسه، فقطع نهر الفولغا (من ينجني) الى (استراخان) سنة (١٧٢٢) واستمرت الحرب في تلك النواحي حتى بعد مبارحة بطرس اياها. فأخذ الروسيون (باكو). وتدخلوا في شؤون بلاد فارس الداخلية. ووعدوا الشاه بمناصرته على اعدائه. واحتلوا داغستان وغيلان ومزندران مع ريشت واستراباد»(*).

أصبح باستطاعة القيصر بطرس الاكبر أخذ قسطه من الراحة والاستقرار بعيداً عن الصراعات الداخلية والحروب الخارجية، فقد دانت له بالطاعة كافة مراكز القوى المناوئة له. غير أنه كان من المحال الركون الى هذا الهدوء الظاهري. إذ أن الخضوع لمنطق القوة الطاغية والاستبداد الجائر كان لا بد وأن ينتهي بردود فعل مضادة عند أول انتكاسة. وقد كان حدوث مثل هذه الانتكاسة أمراً محتملاً باستمرار ومن هنا جاء أهتمام القيصر بطرس بقضية (ولاية العهد). ومما زاد من مخاوف بطرس في أواخر أيام حياته تجاه هذه القضية ظهور مؤامرة خطيرة يتزعمها ابن بطرس (الكسي) وهدفها الإطاحة بكل ما قام به بطرس من الأعمال التي أسماها (الاصلاحات). وظهر لبطرس أن بناءه الذي قضى حياته في تشييده سيكون بناء على الرمال ان هو لم يضمن

(*) جاء في تاريخ الشعوب الاسلامية- كارل بروكلمان- ص ٥٢٤- ما يلي: «كان الصراع بين ايران وافغانستان مستمراً- حتى اذا حاول شاه ايران الحد من حرية الافغانيين شق زعيمهم- ميرويس- عصا الطاعة، موطداً سلطته كأمير مستقل، حتى وفاته سنة ١٧١٥. ثم أن خليفته الثاني - مير محمود- انتقل الى الهجوم على فارس- ايران- ليوفق في تشرين الاول- اكتوبر- سنة ١٧٢٢- الى ان يخلع آخر الصفويين في - اصفهان - عن العرش. والحق ان القيصر بطرس الاكبر استغل هذه القلاقل فاستولى على مقاطعة (داغستان) القوقازية. ومن هنا التمس زعيم قبائل اللاز الذين استقروا في (شماخي) عاصمة (شروان) حماية الباب العالي من القيصر بطرس. ودخل في طاعة السلطان المسلم، فأقطعه (دربند) ولكن بطرس كان قد اندفع في تقدمه فبلغ (باكو) مما اضطر الباب العالي الى أن يتنازل له عن تلك البلاد حتى مصب نهر كور في نهر آراس.

استمرار الحكم بعده في ذات الاتجاه الذي عمل له. وكان ذلك هو السبب الرئيسي فيما أقدم عليه بطرس من أعدام لابنه. وقد جرت القصة على النحو التالي:

تزوج بطرس وهو في السابعة عشرة من عمره (أي سنة ١٦٨٩) بابنة أحد رعيته، واسمها (أفدوكسيا لابوتين) على نحو ما سبق ذكره. وكانت عائلتها من حزب المحافظين، وكانت هي بدورها تحذو حذوهم، وتنتصر لوجهات نظرهم، فكان ذلك سبباً في كراهة بطرس لها وغضبه عليها. وعندما حقق بطرس انتصاره في (آزوف) أرسل الى زوجته من يخبرها بأنه عند عودته الى موسكو لا يريد أن يراها في قصره فذهبت الى (دير بوكرلافسكي) في (سوزدال). وحصل بطرس بعد ذلك على الطلاق منها ليتزوج بكاترين.

ومع أن (أفدوكسيا) طلقت وأصبحت منفية ومبعدة ومحجوزا عليها، الا أنها بقيت محتفظة بقدر من القوة، إذ كانت تعتبر في أوساط الشعب، وفي نظر قسم كبير من رجال الدين- الاكليروس- امرأته الشرعية الوحيدة، وأماً لولي العهد (الكسي) الذي أنشأته وربته على ما تريد هي في مدة غياب القيصر. وبعد طلاقه (أفدوكسيا) اعطى القيصر انتباهاً خاصاً لولده وولي عهده، وأقام على تهذيبه وتعليمه معلمين أجانب. ولكن كان الوقت قد فات، إذ إن (الكسي) شب عن الطوق وهو يحمل مشاعر الحقد ضد ابيه الذي ظلم امه- من وجهة نظره- . وما كان منه إلا أن يسير باستمرار ضد الخط - أو الاتجاه - الذي يسير عليه أبوه بطرس. وبينما كان الأب يخوض الحروب، كان الابن يقضي وقته في وسط الرهبان والمتعبدين الذين أسهموا في إثارة بغضه لكل ما كان يمارسه الاب باسم (الاصلاح). ومما زاد (الكسي) نفوراً تزويجه بالرغم عنه من (شارلوت) من (برونزويل) في (تورغو). فكان الكسي يتعزى بانه سيمتلك يوماً رؤوس الأشراف الذين سعوا بذلك الزواج. ولما حاول امين اسراره اقناعه بأن يتقرب من الاشراف، اجابه: **«اني اثقل عليهم، ولا يهمني أمرهم لأن الشعب بجانبي. وكل ما يجب علي أن أفعله عند موت أبي أن أسر كلمة الى رؤساء الاساقفة، فينقلونها الى أساقفتهم، وهؤلاء الى الكهنة، وهؤلاء الى الشعب، فينادون بي قيصراً».**

ضاق بطرس الكبير بابنه الكسي ذرعاً، ورغب في فصله عن بيئته، فبعث به الى (جرمانيا) للتعلم. غير ان (الكسي) رفض كل ما يأتيه عن طريق والده - حتى العلم- فجرح يده لكي لا يمسك بها الريشة للرسم او الكتابة. وكان يحتج بضعف جسمه. وعبثاً ما حاول الاب نصح ابنه وتوجيهه. ووصلت الامور الى نهايتها عندما فر (الكسي) مع خطيبته (اخروسين) الى جرمانيا، بغياب والده، وذهب الى بلاط فيينا، حيث حصل على وعد بالمساعدة السرية. واستطاع بطرس بعد بحث دقيق معرفة مخبأ ابنه. فأرسل (تولستوي) لاقناعه بالعودة ونجح تولستوي بمهمته، ولم يعرف الكسي أنه قد أسلم رقبته للموت يوم قبل العودة الى الوطن. إذ عمل بطرس فوراً على القاء ابنه في السجن، وأجرى معه تحقيقاً دقيقاً. وأرغمه على توقيع وثيقة بتخليه عن ولاية العهد- بحضور عدد من رجال الدين ورجال الدولة. ثم اضطره الى البوح باسماء شركائه واعوانه في المؤامرة. واكتشف بطرس ان ابنه حصل في فيينا على وعد من الامبراطور بالمساعدة، كما اكتشف بانه توجد بينه وبين السويد اتصالات سرية وانه على اثر فتنة في وسط الجيش الروسي في (مكلنبرغ) تصاحب الكسي مع كبار الموظفين وكان بانتظار خبر منهم ليسير الى معسكرهم، وبأنه كان يعمل على قتل أبيه. وقال أحد اعوان - الكسي- في التحقيق: «نعم- اننا كلنا نتمنى موت قيصر».

اكتشف بطرس أثناء التحقيق أيضاً ما كان يدور من المؤامرات والدسائس بين (دير القيصرة السابقة افدوكسيا) وبين دير ولي العهد الكسي. وكانت القيصرة تظهر بكل مظاهر الحاكم. وكان يذكر اسمها في الكنائس كالقيصر. ولم تكن (افدوكسيا) تعامل معاملة راهبة، بل معاملة امبراطورة وكانت مع ولدها وأهلها ومريديها وكثيرين من الاكليروس يتمنون موت القيصر. ولكن القيصر سبقهم فأرسل كثيرين منهم الى الموت- في عام التحقيقات- . ورأى بطرس ان لا سبيل لاصلاح ابنه، الذي اذا ما بقي حياً، فانه سيعود بعد موت ابيه الى التمرد ومنافسة أخيه على الملك فتتجدد الفتن. فجمع مجلس الاكليروس. وأصدر الحكم على ابنه بالموت(*)

(*) انظر في نهاية الكتاب (قراءات- ١) والتي تتضمن الرسائل المتبادلة بين بطرس وابنه الكسي.

صار بطرس يفكر في أمر الوريث بعده. وكان قد ولد له من كاترينا ابنان (بطرس وبولس) ماتا طفلين. وابنتان (حنة) التي تزوجت من دوق هولشتين. و (اليزابيت- أو اليصابات) التي صارت بعد ذلك قيصرة لروسيا. وكان (لالكسي) ولد من امرأته (شارلوت) صار بعد ذلك بطرس الثاني. وكان اسمه يذكر في الصلوات العمومية.

تعرض بطرس في السنتين الاخيرتين من حياته (١٧٢٣- ١٧٢٥) الى انحطاط في قواه الجسمية بسبب ما تجشم من المتاعب وأحاق به من الأخطار. وشعر بدنو أجله- فأوصى بتعيين زوجته (كاترين) لتكون قيصرة من بعده. غير أن ضعف قوته لم يغير من طبيعته. فبقي قليل الاهتمام بنفسه. وفي ذات يوم القى بجسمه في الماء الجليدي لينقذ سفينة كانت على وشك الغرق. وشعر فوراً بنوبة مرضية تهز جسده، وبرد قارص عقد فيه لسانه- ومات مشلولاً دون أن يتكلم أو يكتب وصيته الاخيرة. وكان عمره (٥٣) عاماً.

١٠- كاترين على طريق القيصر بطرس.

وقفت (كاترين) زوجة بطرس الثانية، الى جانب زوجها، تشد أزره، وتثير حماسته، وتقاسمه همومه، وتقتحم معه مواطن الخطر، وكان لها الفضل الاكبر في انقاذه وانقاذ جيشه عندما وقع في قبضة الجيش العثماني على ضفاف (نهر بروث). واعجب بطرس بفضائل زوجته وما يتوافر لها من القدرة والكفاءة. وعندما اكتشف مؤامرة ابنه (الكسي) أصدر في سنة ١٧٢٣ منشوراً ، ضمنه ما قدمته زوجته - كاترين - في خدمة (الروسيا)وما يرجى منها لمستقبل البلاد. وتوجها امبراطورة بصورة رسمية. غير أن القيصر لم يلبث أن أخذ في اعادة تقويم موقفه منهاعندما اطلع بنفسه على ما يؤيد له أنها كانت ملحدة (كافرة). ومهما كان الأمر، فإنه لم يكن للقيصر حق حتى ذلك الوقت بتعيين من يخلفه في الملك، الأمر الذي كان قد طلبه منذ سنتين. وعلى كل حال، فقد جاءت ميتة بطرس المباغتة لتخلق مشكلة صعبة امام (كاترين). إذ انقسمت الامة

بخصوص تعيين (القيصر). وظهر صراع حاد بين الحزبين الرئيسيين اللذين يمثلان مركزي القوى الرئيسيين. فكان هناك حزب يؤيد اسناد العرش الى (بطرس ابن الكسي) والذي لم يكن قد بلغ الثانية عشرة من عمره،وحزب آخر يقف وراء كاترين ويدعمها وهو يضم اولئك الرجال الذين رفعهم بطرس الى السلطة ودعمهم فكانوا له بالمقابل اعواناً مخلصين. وأيدوه في قضية اعدام ابنه (الكسي) وهم اليوم يخافون استلام (بطرس بن الكسي) العرش، وما يحتمل أن يمارسه من بطش بهم انتقاماً لمصرع أبيه. وباتت (كاترين) هي أملهم الوحيد للنجاة من العقاب المحتمل. واستطاع هؤلاء تكتيل جبهة قوية زاد من بأسها سيطرتها على السلطة الشرعية، وإمساكها بمقدرات الجيش وأجهزة الحكم. وأمكن انهاء الصراع مؤقتاً بتنفيذ وصية بطرس السابقة. فتم تعيين (كاترين) قيصرة على روسيا.

لم تعمر القيصرة (كاترين) فترة طويلة بعد وفاة زوجها. إذ انها توفيت سنة (١٧٢٧) ولما يمض على توليها السلطة اكثر من عامين. وجاء بعدها حفيد بطرس وابن (الكسي) باسم (بطرس الثاني- ١٧٢٧- ١٧٣٠). ولكن، وعلى الرغم من قصر المدة التي حكمت فيها القيصرة كاترين ، إلا أنها كافية لتثبيت دعائم الحكم الذي أقامه القيصر بطرس، وثبات اتجاه السياستين الداخلية والخارجية اللتين حددهما للبلاد. لقد عملت القيصرة (كاترين) على ترسيخ العداء ضد الامبراطورية الاسلامية العثمانية، وثبتت ملكية روسيا لاقاليم (البلطيق). واستمرت في تطوير الحركة العمرانية في البلاد، وأبقت على القوانين والاجهزة التي وضع اساسها بطرس الاكبر. وبقيت هذه السياسة ثابتة سواء كان ذلك التزاماً بوصية القيصر بطرس[*] أم كان ذلك اقتداء بسيرته وأعماله.

ويبقى السؤال: ترى هل كان تحول القيصر بطرس ضد ابنه الكسي، بتأثير من كاترين؟ وهل كان (الكسي) ضحية نزوات بطرس؟

(*) انظر في نهاية الكتاب (قراءات- ٢) وصية بطرس لخلفائه.

الفصـــل الثـــاني

القيصر بطرس وموقعه في التاريخ

١ـ موقعة الجليد (١٢٤٢).
٢ـ موقعة كوليكوف (١٣٨٠).
٣ـ التطور العسكري.
٤ـ بطرس وتيار التاريخ.
٥ـ بطرس الاكبر وفن الحرب.

القيصر بطرس وموقعه في التاريخ.

تظهر أحداث التاريخ الكبرى، في كثير من الاحيان، على شكل اندفاعات مباغتة، ذات اشكال مثيرة، تأتي يد الانسان لتعطيها الواناً متباينة (زاهية أو قاتمة). وفي الحالتين تبقى مضللة مخادعة. وقد كان ظهور (بطرس الأكبر) وما قام به من اعمال ومنجزات، حدثاً من الاحداث التاريخية البارزة- دون ريب- **ولكن هل كان بطرس ظاهرة فردة؟ وهل هو حقاً الذي صنع عظمة الروسيا؟ وفي كل الحالات ما هو موقعه الصحيح في التاريخ؟**

ان الاجابة عن هذه التساؤلات وامثالها، تتطلب بالضرورة وضع الحدث التاريخي في اطاريه الزمني والمكاني. وعندئذٍ يأخذ الحدث حجمه الصحيح والطبيعي. ولقد ظهر في القسم الاول من البحث (**التطور التاريخي**) أن روسيا كانت تجابه تحديات داخلية وخارجية، وكانت التحديات الداخلية تكمن في الانقسامات والصراعات بين الحكام والامراء بعضهم ضد بعض. أما التحديات الخارجية فتكمن في أعمال العدوان الشرقية والغربية حيث كان (المغول- التتار) يشكلون تهديداً دائماً من الشرق، بينما كان السويديون والالمان (الجرمان) يمثلون التهديد الغربي الدائم. وعلى هذا فقد كانت مجابهة التحديات تتطلب عملاً متكاملاً على الجبهتين الداخلية والخارجية. وفي الحقيقة، فقد حاول حكام كييف- بصورة خاصة- الاضطلاع باعباء بناء الجبهتين، ومقابلة التحديات باستجابة مناسبة. ولم يكن جهد (ايفان الرابع- الرهيب) ومن جاء بعده من (آل رومانوف) إلا نسيجاً تاريخياً مستمراً ضمن تأمين التفاعل الضروري لولادة الحدث التاريخي الذي جاء بطرس الاكبر تعبيراً عنه.

لقد كانت التحديات التي فرضت على روسيا هي تحديات من نوع (الصراع المسلح). وكان لا بد للاستجابة الناجحة من الاخذ بطرائق (الصراع المسلح). وهذا ما فعله أسلاف القيصر بطرس عبر تاريخهم الطويل. وقد عمل هؤلاء جميعاً على تطوير طرائق الصراع المسلح في اتجاهين: ١ـ زيادة حجم القوات المقاتلة وتنظيمها بما يتوافق مع متطلبات المجابهة. ٢ـ اجراء تطور نوعي ـ والاخذ بأحدث التقنيات التي تستخدمها الجيوش المنافسة. ويظهر من خلال ذلك أن (الروسيا) قد ولدت وتشكلت في مناخ الحرب، وفي هذا المناخ نشأت وكبرت واشتد ساعدها. وقد تعرضت خلال ذلك للكثير من الهزائم والانتكاسات كما عرفت بعضاً من النجاح والانتصارات. وافادت (الروسيا) من انتصاراتها بقدر ما افادت من هزائمها، فوضعت أسس سياسة استراتيجية ثابتة حددت فيها اعداءها واصدقاءها، كما حددت طرائق التعامل مع هؤلاء واولئك. وعلى هذا، فقد يكون من المحال التصديق بأن توجه بطرس نحو البلطيق، انما كان نتيجة (ابداع من بطرس) او (نتاج عبقرية فردة).

لقد جابه القيصر بطرس قوات المغول (التتار) وكانت هذه قد تحولت الى الاسلام منذ عهد بعيد (وعرفت باسم القبائل الذهبية). وكانت روسيا قد تحولت الى النصرانية ووجدت فيها وسيلة لتوحيد قواها. فليس من الغريب أن يتبنى القيصر بطرس سياسة اسلافه، واعتبار الحرب ضد الاتراك، العثمانيين نوعاً من الحروب الصليبية.

لقد كانت (الروسيا) عبارة عن امارات شرقية، سواء بحكم موقعها الجغرافي (حيث كانت محصورة عند الحدود الشرقية للاورال) أو بحكم اتصالها مع الدول الشرقية (المغول التتار) و (دار الخلافة العثمانية). غير أنها بحكم حاجتها للتوسع نحو الغرب، تمشياً مع خط سير الهجرات القديمة وبصورة خاصة منها الهجرات السلافية، قد وجدت نفسها مرغمة على الاحتكاك بالغرب والتعامل معه. وقد جاءت الصراعات المسلحة في البداية لتلزم روسيا بانتهاج سياسة دفاعية ضد هذا الغرب، لم تلبث ان تطورت الى سياسة هجومية بصورة طبيعية تماماً.

وعلى اساس هذا المنظور، يظهر القيصر بطرس وهو محمول على عجلة التاريخ

ليمارس دوره في (تاريخ روسيا) بصورة طبيعية تماماً، غير أن ذلك لا ينتقص بداهةً من اهمية دور (القيادة التاريخية) التي مارسها (القيصر بطرس الاكبر).

لقد عرف قيصر المسار الصحيح لاتجاه تيار التاريخ، سواء عن طريق ما تم تلقينه له من المعرفة التاريخية باحداث بلاده، أو عن طريق احساسه السليم وتقديره الصحيح لمجريات الاحداث (أو عن طريق الربط بين قصة التاريخ وقصة بناء المستقبل). وعرف قيصر أيضاً ما كانت تتمخض عنه بلاده من تفاعلات، فكان التقاء تيار التاريخ، بالقيادة التاريخية في الزمن المناسب هو الذي صنع قصة (القيصر بطرس الاكبر).

لقد حاول (ايفان الرهيب) ممارسة الدور الذي اضطلع به القيصر بطرس فيما بعد، كما حاول ميخائيل رومانوف والكسي، وفيودور القيام بالدور ذاته. غير أن العامل الزمني لولادة الحدث لم يكن قد حان بعد، فكان فشل الجميع فيما نجح بطرس في تحقيقه وانجازه.

يظهر من خلال ذلك أن بطرس كان (تلميذ التاريخ) وكان (صانع التاريخ) في وقت واحد. ومن خلال المنظور ذاته، كان (تلميذاً من تلاميذ فن الحرب) بقدر ما أصبح أيضاً (استاذاً من أساتذته البارزين) وهو في الحالات كلها (انسان القدر).

ويبقى من الضروري بعد ذلك كله العودة الى البدايات الاولى للتحديات التي فرضت ذاتها على روسيا، وارغمتها على احد خيارين، اما الفناء والانصهار في بوتقة الغزاة ـ من الشرق أو الغرب ـ واما الاستجابة بصورة صحيحة. وهنا، وإكمالاً لما جاء في مقدمة البحث (**فقرة التطور التاريخي**)، يجدر التوقف عند ثلاثة مؤشرات تلقي بظلالها البعيدة نحو افق المستقبل، وتفسر الى حد بعيد (ولادة الحدث التاريخي الذي جاء به القيصر بطرس) وهذه المؤشرات هي:

١ـ موقعة الجليد (١٢٤٢).

٢ـ موقعة كوليكوف (١٣٨٠).

٣ـ التطور العسكري.

١ ـ موقعة الجليد (١٢٤٢).

تعرضت الاراضي الروسية في العام (١٢٤٠) لغزو جديد من الغرب، بعد أن أفقرتها غزوات التتار من الشرق، وقد تحالفت في هذا الغزو الغربي القوى الالمانية والسويدية حاملة الصليب والمدعومة من الكنيسة الكاثوليكية في اوروبا. وقد وضعت هذه القوات هدفاً لها هو احتلال اراضي (نوفغورد) و (بسكوف).

كانت القوات الروسية في تلك الفترة تحت قيادة القائد البارز (الكسندر نيفسكي) الذي لم يكتف بايقاف هجوم القوات الالمانية ـ السويدية فحسب، بل انه دمر القوات السويدية في معركة قرب نهر النيفا عام (١٢٤٠) ثم دمر القوات الالمانية عند بحيرة تشودسكي سنة(١٢٤٢).

كانت (نوفغورد) في الفترة بين القرن الثاني عشر والخامس عشر اكبر امارة مستقلة، وكانت ملكيتها تمتد من خليج فنلندا حتى جبال الاورال. ومن البحر الابيض حتى المجرى الأعلى للفولغا. وكانت قوات نوفغورد تتكون من قوات الامراء التابعين لها ومن قوات المُلاك اصحاب الأراضي، ومن الحرفيين والفلاحين الذين يتم استدعاؤهم لحمل السلاح عندما تندلع نار الحرب. وتقدر هذه القوات بحوالى (٥) آلاف رجل في الأحوال العادية. وكان بالمستطاع جمع حتى (٢٠) ألف رجل أثناء الحرب.

كانت القوات تجزأ الى بلوكات (أفواج) لم يكن لها تعداد ثابت، وكان الامراء يقفون على رأس القوات ـ ويتقدمونها ـ ويتبعهم كبار القادة، وهؤلاء يتبعهم قادة الالوف، الذين كانوا يتولون قيادة الجنود (من الاهالي الذين يتم حشدهم وتعبئتهم). وكانت المشاة هي الصنف الاساسي. اما الخيالة فكانت تتألف من فرسان الاقطاعيين (الدروجينا). وكان ترتيب القتال يتألف من القلب والاجنحة، ثم ظهر الخط المتقدم الذي كان يتمركز أمام القلب، وذلك اعتباراً من القرن الثاني عشر. وكانت المعركة تبدأ برمايات النبالة (حملة السهام) الذين يتمركزون أمام الافواج.

امتلكت (نوفغورد) اسطولاً بحرياً ونهرياً يضم سفناً وزوارق كبيرة وصغيرة، وقد

اشترك هذا الاسطول اكثر من مرة في الحملات المختلفة، وحقق النصر على الاسطول السويدي.

قرر الألمان والسويديون توجيه ضربتهم ضد روسيا من اتجاهين، حيث يقوم السويديون بهجوم من الشمال فيحتلون مصب (نهر نيفا) وقلعة (لادكا) بينما يقوم الألمان بهجومهم لاحتلال (بسكوف) و (نوفغورد). وبدأ هجوم القوات حاملة الصليب بهجوم بري من القوات السويدية. كما تم انزال قوات سويدية أخرى في مصب (نهر نيفا) وهكذا أصبح الموقف معقداً بالنسبة الى نوفغورد. وتطلب الأمر عملاً سريعاً وحاسماً. عندها قرر أمير نوفغورد (الكسندر) تحطيم قوة العدو بضربة مباغتة سريعة حتى لا يتيح له فرصة التقدم نحو بحيرة (لادكا). وانطلق (الكسندر) نحو القوات السويدية، بعد أن دفع أمامه عناصر الاستطلاع لتحديد حجم قوة العدو، ومكان تمركزها.

قام (الكسندر) بهجومه على القوات السويدية وهي في معسكرها، يوم ١٥ تموز- يوليو- ١٢٤٠. وأظهرت القوات السويدية مقاومة شديدة، وحاربت بشجاعة غير أن قوات (الكسندر) تمكنت بالرغم من قلة عددها، من سحق القوات السويدية بضربة واحدة، بحيث لم ينج منها إلا اعداد قليلة لاذت بالفرار على المراكب. وقد أمن هذا النصر الحدود الروسية من الشمال. وهنا تكمن اهمية هذا النصر من الناحيتين السياسية والعسكرية، وهذا ما دعا الى تسمية الكسندر بلقب (الكسندر نيفسكي) نسبة الى نهر نيفا حيث دارت الموقعة. هذا وقد تميزت قوات نوفغورد خلال موقعة نهر نيفا، بكفاءتها القتالية العالية وبتنظيمها الدقيق للاستطلاع مما مكنها من تحقيق المباغتة، وتوجيه ضربتها الحاسمة التي برهنت بدورها على الروح المعنوية العالية المتوافرة لدى قوات الامير (الكسندر).

اخترقت القوات الالمانية منطقة بسكوف في خريف سنة (١٢٤٠) ثم وصلت الى منطقة نوفغورد. واستطاعت بعد صراع طويل من احتلال عدد من المدن الروسية المحصنة ومنها مدينتي (بسكوف) و (كابوري). وأفاد (الكسندر نيفسكي) من الفترة التالية فاعاد تنظيم قواته، واكمل استعداداته، ثم وجه ضربة جريئة وحاسمة الى القوات

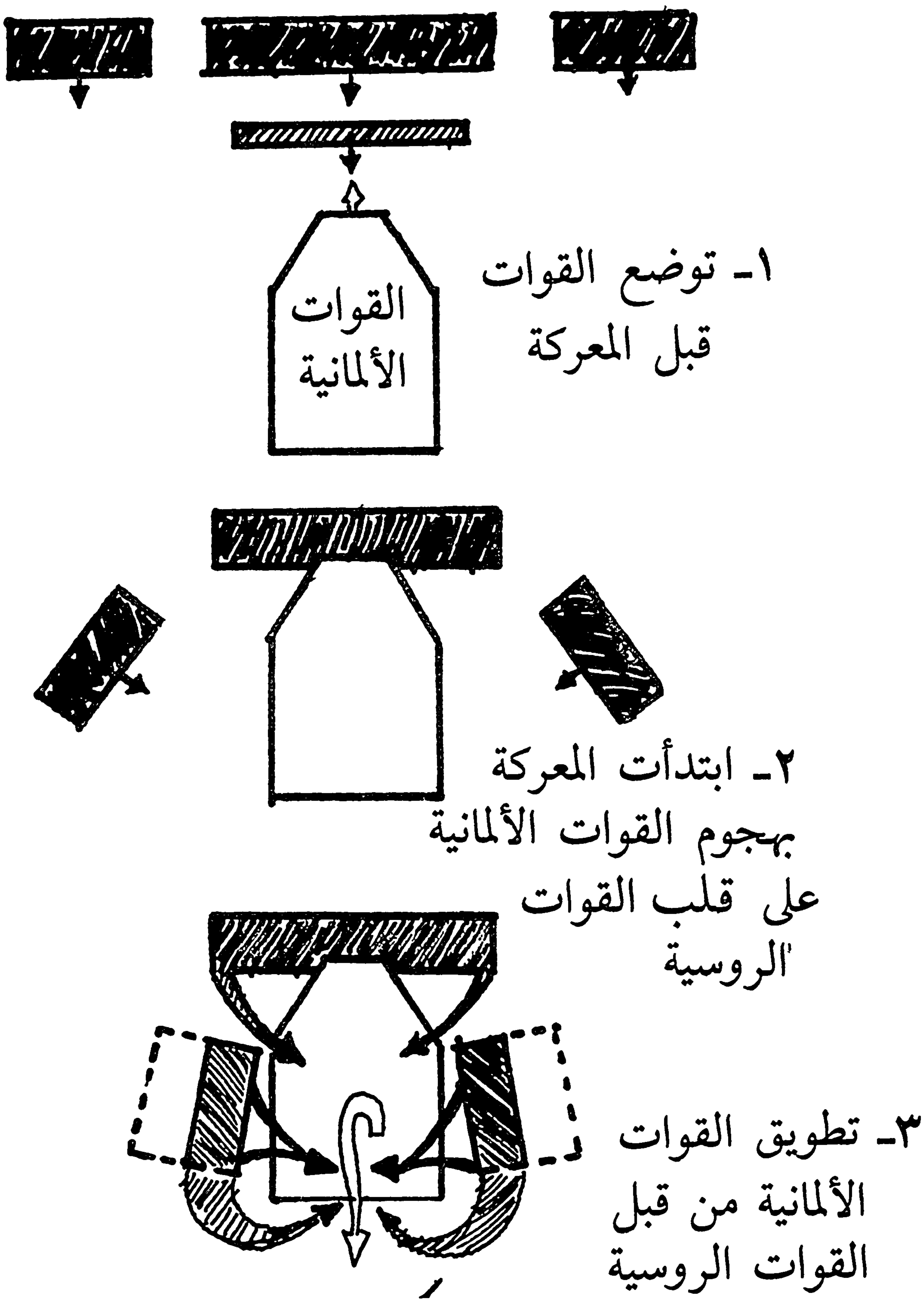
الجرمانية - الالمانية - استعاد على اثرها مدينة كابوري.

غضب الالمان حملة الصليب أشد الغضب لهذا الانتصار، وقرروا توجيه حملة جديدة ضد روسيا. وقد قرر الروس بالمقابل عدم انتظار العدو، بل توجيه ضربة اليه في الاماكن التي وصل اليها.

ووقعت المعركة الحاسمة بين القوات الجرمانية - الألمانية- والقوات الروسية على جليد بحيرة (تشودسكي) جنوب - غرب بيترسبورغ (لينينغراد). وعرفت هذه المعركة في التاريخ بأسم (معركة الجليد) حيث زج فيها كل طرف من الطرفين المتصارعين حوالى (٣٠) ألف رجل. وكانت القوات الروسية تعتمد في الاساس على قوات المشاة، بينما كانت الخيالة الثقيلة (الدراغون) هي الكتلة الاساسية للقوات الجرمانية. وقد أعطى اختيار مكان المعركة فوق جليد بحيرة تشودسكي للقوات الروسية بعض الميزات، وأعاق عمل الخيالة المعادية.

كان (الكسندر نيفسكي) ومعاونوه يعرفون تماماً الاساليب التعبوية- التكتيكية- للقوات الألمانية، حيث كان التوغل العميق بطريقة الاسفين هو الاسلوب الاكثر استخداماً من قبل هذه القوات ضد القوات الروسية، وكان المعروف أن الضربة الأولى لهذا الاسفين المدرع لا يمكن أن تصد. وكانت فكرة الفرسان الألمان تقوم على أساس توجيه ضربة قوية ساحقة الى قلب القوات الروسية وتدميرها. وقابلت القوات الروسية هذا المخطط بوضع قوات كبيرة على الأجناب. وهكذا تمركزت القوات الروسية على أرض المعركة بالافواج (البلوكات) حيث توضع فوج في الوسط أو القلب وفوجان على الأجناب. كما تمركز رماة السهام (النبالة) في الأمام. ودعمت الأجناب بشكل جيد بالمشاة القوية وبالخيالة. وكانت فكرة القائد الروسي (الكسندر) تتلخص في توجيه ضربة حاسمة وقوية على اجناب الاسفين الألماني ومؤخرته عندما يندفع نحو قلب القوات الروسية (انظر المخطط المرفق لموقعة الجليد).

بدأت القوات الألمانية هجومها في صباح يوم ٥ نيسان- ابريل- ١٢٤٢، وركزت



موقعة الجليد عام ١٢٤٢

ضربتها الرئيسية على قلب الترتيب القتالي الروسي. وبنتيجة ذلك، استطاع الألمان التوغل في قلب القوات الروسية. وفي هذا الوقت قامت الأفواج الروسية المتمركزة على الجانبين الايمن والايسر بتوجيه ضربات قوية وحاسمة على جانبي الاسفين الألماني مكبدة اياه خسائر فادحة.

اتصف القتال بالعنف الشديد بسبب زج كل الافواج الروسية في المعركة. وأصبحت القوات الألمانية مطوقة من كل الجهات. فتكبدت خسائر كبيرة في الأرواح. وحاول بعض الفرسان الجرمان- الالمان- خلال المعركة التخلص من الاشتباك والفرار بعيداً عن ميدان القتال. عندها قام الكسندر بمطاردتهم، ولم يسمح لهم بالهرب، وانتهت المعركة بانتصار حاسم على القوات الجرمانية. وأرسل الامراء الالمان بعد المعركة سفراءهم طالبين عقد الصلح، وأجابهم الكسندر نيفسكي بقوله:

«إن من يأتي الينا بالسيف، سيموت أبداً بالسيف. بهذا المبدأ تمسكت البلاد الروسية في الماضي وبه ستتمسك في المستقبل».

يعتبر الكتاب العسكريون السوفييت أن (معركة الجليد) هي من أبرز معارك القرون الوسطى، إذ انها أظهرت للقوات الروسية قدرتها على تطويق العدو وتدميره بطريقة تقليدية - كلاسيكية- كما أنها اول معركة في تاريخ فن الحرب- بالنسبة لهم- يتم فيها تدمير قوات الفرسان بقوات تتكون في معظمها من المشاة. وقد حصلت هذه المعركة قبل ستين عاماً من المعارك الكبيرة اللاحقة التي حصلت في الغرب بين المشاة والفرسان. ويعتز السوفييت بما كتبه (كارل ماركس) عن هذه المعركة ونتائجها السياسية باعتبارها نموذجاً للصراع التحرري العادل للقوات الروسية بقيادة (الكسندر نيفسكي)(*) ضد الغزاة الجرمان المعتدين . حيث ذكر في كتابته ما يلي: **«لقد انطلق الكسندر نيفسكي**

(*) تجدر الاشارة الى أن رئيس مجلس السوفييت الاعلى- ستالين- قد أصدر خلال الحرب الوطنية العظمى (سنة ١٩٤٢) مرسوماً يتضمن احداث وسام دعي باسم (وسام الكسندرنيفسكي) يتم منحه للضباط البارزين في الجيش الاحمر. وذلك بهدف ربط تقاليد الامة النضالية حاضرها بماضيها. واثارة مشاعر الاصالة الذاتية.

ضد قوات الغزو الجرمانية ، ودمرهم على جليد بحيرة تشوّدسكي بشكل أبعد هؤلاء الغزاة نهائياً عن الحدود الروسية»

٢ـ موقعة كوليكوف (١٣٨٠).

يرتبط تطور الفن الحربي الروسي ارتباطاً وثيقاً بالصراع الطويل والضاري ضد المغول (التتار). ففي القرن الرابع عشر، وفي ظروف التجزئة والحروب الداخلية بين الامراء، بدأت ولادة روسيا المركزية. والتي كان ظهورها عبارة عن تجميع لشتات الأرض الروسية، وأساساً للصراع ضد الغزاة الأجانب. وقد تعاظمت القدرة الاقتصادية والعسكرية لامارة موسكو خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، الأمر الذي ساعدها على قيادة الصراع المسلح ضد المغول (التتار). وكانت قوات روسيا تتكون من وحدات امراء منطقة موسكو وشمال ـ شرق روسيا التي كانت تعتبر النواة الاساسية للقوات المسلحة، والتي كانت تكمل برجال الاقطاعيين وبالمعبئين من الفلاحين والحرفيين المدعوين في حالة الحرب. وكانت الخيالة هي الصنف الاساسي من القوات. وكانت قادرة على العمل وهي راجلة أيضاً. وأما المشاة المكونة من الفلاحين والحرفيين، فقد اضطلعت بدور أساسي في المعركة، وقررت في اكثر من مرة مصير المعركة بتعاونها الوثيق مع الخيالة.

كان تسليح المحاربين الروس يتكون من القوس والسهم والسيف والرمح والبلطات الحربية والخناجر والسكاكين. وأما التسليح الواقي فكان يتألف من التروس الخشبية أو المعدنية، ومن الدروع والخوذ والصفائح المعدنية. وأستخدمت لحصار القلاع الآلات المختلفة لهدم الجدران وقذف الحجارة. وظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر في روسيا السلاح الناري. وتشير المعلومات المتوافرة عن استخدام الروس لهذا السلاح الى استخدامه منذ العام ١٣٨٢ عند الدفاع عن موسكو ضد هجوم المغول (التتار) بقيادة (خان توختاميش).

كانت كل القوات قبل انطلاقها في الحملة، وكذلك على أرض المعركة، تتجزأ الى

الاقسام التالية: الفوج الكبير وهو القوة الاساسية التي تتمركز في القلب. ثم الفوجان الأيسر والأيمن، والفوج المتقدم، وفوج الحراسة. وكان يوضع قبل المعركة فوج خاص يسمى بالفوج-الكمين. وكان يعتبر بمثابة الاحتياط الأساسي، وكانت ضرباته تقرر مصير المعركة. وكان الفوج الكبير هو أساس الترتيب القتالي، وكانت مهمة الفوج اليميني واليساري والمتقدم هي حماية الفوج الكبير من الضربات الجانبية ومن الضربة الجبهية الأولى. وكان الفوجان الايمن والأيسر، والمشكلان بأغلبهما من الخيالة، يقومان بتوجيه الضربات الجانبية. وكانت الأوامر تعطى بالأعلام والرايات. وكانت التقاليد تقضي بأن يبدأ الأمير قائد القوات بالمعركة أولاً.

ظهرت علائم الضعف في جيش التتار، في القرن الرابع عشر، حيث فشت الحروب الداخلية. وكان الصراع على السلطة بين امراء التتار (الخانات) هو العامل المسرع في انحطاط الدولة التتارية. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أصبح (ماماي) هو القائد الفعلي في الدولة التتارية. وقد أظهر استعداداته لمهاجمة روسيا في العام (١٣٨٠) حيث توافر له جيش يزيد على (١٠٠) ألف محارب. وعقد لهذا الغرض حلفاً عسكرياً مع امارة (لاتفيا) و (ديزان) للقيام بعمل مشترك ضد روسيا.

كان أمير موسكو (ديمتري ايفانوفتش) (١٣٥٠- ١٣٨٩) يتابع باهتمام استعدادات التتار وما يعتزم (ماماي) القيام به. فأسرع فوراً الى جمع القوات الروسية، وأرسل سعاته ـ مراسليه ـ الى كافة الامارات طالباً اليها ارسال كل ما يتوافر لديها من القوى لحماية الأرض الروسية من العدوان. كما أرسل مجموعة قتالية قوية باتجاه مكان تمركز (ماماي) بهدف الاستطلاع وجمع المعلومات.

كانت خطة ديمتري تهدف الى القيام بالأعمال الهجومية الحاسمة، لهذا قرر ما يلي: «**منع العدو من التجمع، سبق العدو والهجوم عليه قبل أن يكمل استعداداته، ومحاربته كأخطر عدو، وتدميره قبل دخوله حدود امارة موسكو**». وكان هذا المخطط الحاسم للعمل ينطبق تماماً مع رغبات الشعب الروسي، ويستجيب لطلب القوات المسلحة. وأمكن تجميع القوات الروسية في الوقت المحدد (بتاريخ ١٥ـ آب ـ أغسطس ـ

١٣٨٠) في مدينة (كالومين). حيث التقت بشكل ناجح تماماً كافة المفارز والقوى المسلحة التابعة للامراء وكبار الاقطاعيين، من مختلف مناطق روسيا، هذا بالاضافة لمن تم حشدهم من قوات المشاة، من الفلاحين في الارياف والحرفيين في المدن، ونظمت القوات للمعركة، وتم استعراضها وتفتيشها يوم ٢٥ آب- أغسطس. . .

بدأت القوات الروسية بالوصول الى نهر الدون تحت قيادة أمير موسكو- ديمتري- اعتباراً من اليوم الأول من شهر أيلول - سبتمبر- ١٣٨٠ وفي ليلة (٨) أيلول- سبتمبر- كان قد تم عبور نهر الدون لقوة (١٠٠) ألف رجل. وانطلقت هذه القوة فوراً نحو (كوليكوف). وهناك، تم انتقاء أرض مناسبة لتكون ميداناً للمعركة. وكان هذا الميدان محاطاً من جهاته الثلاث بالانهار والوديان العميقة. وقد اختار- ديمتري- هذه الأرض على اساس دراسة الاساليب التعبوية- التكتيكية- للاعداء والأصدقاء. وتم بذلك ارغام (ماماي) على الدخول في المعركة فوق أرض غير ملائمة للتتار، باعتبارها غير صالحة لعمل الخيالة وقتالهم.

كسب - ديمتري- بذلك المرحلة الاولى من الاعداد للمعركة، وانصرف لتنظيم قواته. فوضع الفوج الكبير في الوسط ليكون اساس الترتيب القتالي، ثم وضع على اجنابه الفوج الايمن والفوج الأيسر. ونشر الفوج الامامي في مقدمة القوات، لتغطيتها وتلقي الصدمة الاولى. وانتشر خلفه الاحتياط الخاص. أما فوج الكمين- أو الاحتياط العام- فتمركز خلف الجناح الأيسر، مستفيداً من الغابات للانتشار بشكل سري. كما انتشر فوج الحراسة أمام الفوج المتقدم- الامامي- وكانت مهمته تجنب ضربات مقدمة قوات العدو.

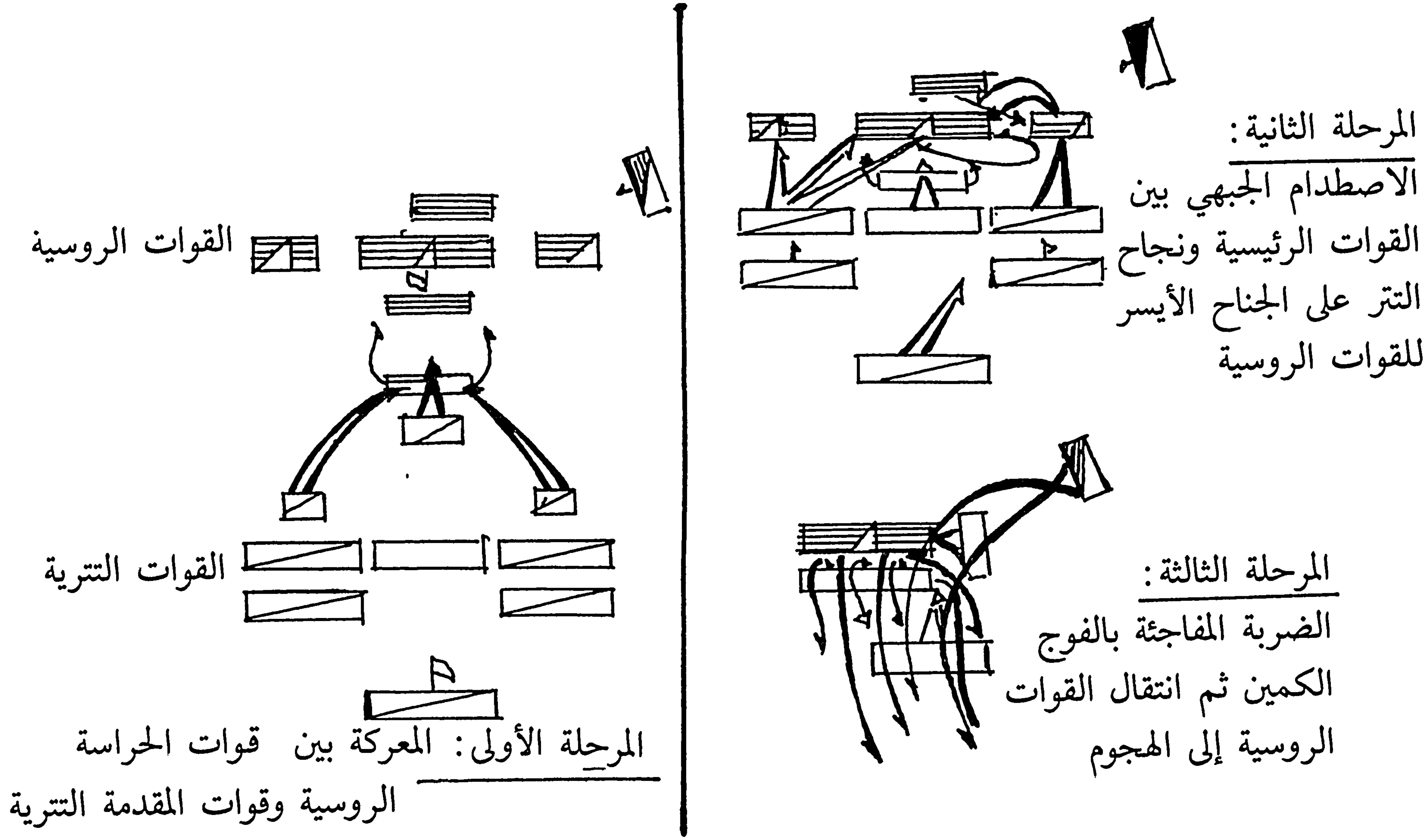
انقسمت معركة (كوليكوف) التي ابتدأت يوم (٨- أيلول - سبتمبر- ١٣٨٠) الى أربع مراحل، وكانت المرحلة الاولى هي معركة فوج الحراسة الروسي مع مقدمة جيش التتار، وبعدها زجت في المعركة القوى الرئيسية للطرفين. والمرحلة الثانية هي الاصطدام الجبهي للقوات الاساسية وانتصار التتار على الجناح الأيسر للقوات الروسية. (انظر مخطط معركة كوليكوف- المرفق).

وصلت قوات التتار الى المواقع الروسية حوالى الساعة (١٢٠٠) وذلك بعد اصطدام الفوج الامامي مع الوحدات التتارية الأمامية، غير أن خيالة التتار لم تتمكن من الالتفاف حول الاجناب الروسية المحمية بالوديان. وبدأت المعركة بالاصطدام الجبهي للقوات الرئيسية للطرفين، وقد وجهت ضربة التتار الى قلب المواقع الروسية مع محاولة تحطيم الجناح الأيسر على اعتبار أن الخيالة تستطيع ايجاد حقل للمناورة خلف (نهر سمولك).

تلقى الفوج الروسي الأمامي الضربة الجبهية، ثم تطورت المعركة فشملت الجبهة كلها. ودارت رحى معركة ضارية تحمل فيها الطرفان المتصارعان خسائر فادحة، وقد جرح الأمير- ديمتري- وخرج من المعركة.

استطاع الفوج اليميني صد هجمات التتار، غير أن الفوج اليساري لم يحتمل ثقل الهجمة، وأخذ في التراجع نحو الخلف نظراً لتعرضه لقوى كبيرة، وبعدها اندفعت قوات التتار في محاولة للالتفاف حول الجناح الروسي الأيسر، وظهر أن القوات الروسية أصبحت تجابه موقفاً خطيراً، لا سيما وأن الاحتياط الخاص الذي استطاع الصمود أمام تقدم التتار لبعض الوقت، ظهر أنه عاجز عن الاستمرار في المقاومة. وقد أخذت قوات التتار في تحطيم بقية الجناح الروسي الايسر والالتفاف لتطويق القوات الروسية من ثلاث جهات ثم قذفها في النهر، وهنا أصبحت قوات الجناح الأيمن للتتار، ومؤخرتهم، تحت رحمة ضربات الفوج الكمين. وبذلك، بدأت المرحلة الثالثة من الموقعة بضربة مباغتة على القوات التتارية شنها الفوج الروسي الكمين. وانتقلت جميع القوات الروسية الى الهجوم العام.

تبدلت مسيرة احداث المعركة تبدلاً جذرياً بزج الاحتياط العام في الوقت المناسب. وقد اصيبت قوات التتار بالذهول لهذه الضربة الجانبية غير المتوقعة. ونجم عن ذلك ظهور حالة عامة من الفوضى والاضطراب. وأخذت قوات التتار بالفرار بعيداً عن ميدان المعركة. وعندئذٍ قامت قوات الفرسان الروسية بمطاردة فلول قوات التتار



معركة كوليكوف عام ١٣٨٠

الممزقة لمسافة (٣٠- ٤٠) كيلومتراً- وكانت هذه المطاردة هي المرحلة الرابعة والأخيرة في المعركة.

استمرت معركة (كوليكوف) منذ بدايتها وحتى مطاردة قوات التتار حوالى ثلاث ساعات (أي المرحلتين الثانية والثالثة منها). وكانت الخسائر كبيرة جداً من الجانبين المتصارعين. وفقدت القوات الروسية نصف تعدادها. غير ان خسائر قوات التتار كانت اكبر من خسائر اعدائها.

تكمن أهمية معركة (كوليكوف) بانها كانت البداية الناجحة لتحول الصراع بين الروس والتتار، الأمر الذي دفع بقية شعوب اوروبا الشرقية للحذو حذو روسيا في محاربة الهيمنة التتارية والتخلص منها. كما افادت امارة موسكو من هذا النصر لبذل المزيد من الجهد وتوحيد بقية الامارات الروسية. ولا سيما تلك التي استطاع جيران روسيا في الغرب (السويد والجرمان) اخضاعها لحكمهم خلال فترة تمزق روسيا وضعفها.

اتصفت استراتيجية القوات الروسية وتكتيكها بالطابع الحاسم. واعتمدت خطة الصراع مع التتار على الأعمال الهجومية الحاسمة، وعلى تدمير قوات العدو على أقسام، وعلى المعرفة العميقة لاساليبه القتالية. وافادت القوات الروسية الى حد كبير من طبيعة أرض المعركة. كما أن الترتيب القتالي الروسي سمح بزيادة قوة الضربة من العمق باستخدام الاحتياط الخاص والعام.

٣- التطور العسكري.

حصل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تطور لاحق في وسائل الانتاج، فقد ساعدت بعض الاختراعات على تطوير الحرف والصناعات، الأمر الذي مكن من تطوير القوات المسلحة. وكان لظهور البارود في أوروبا- في القرن الرابع عشر الأثر الكبير في تطوير فن الحرب. وعلى الرغم من أن الاشكال الاولى للاسلحة النارية كانت

بدائية جداً، إلا أنها لم تلبث أن تطورت باستمرار. وأدى هذا التطور الى حدوث تغيير في طرائق القتال على مستوى العمليات وعلى المستوى التعبوي (التكتيكي). وحدث بعد ذلك، ومع نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر، ظهور تطور جديد في مجال الانتاج الصناعي حيث بدأت قوى الانتاج نموها السريع، ورافق ذلك بصورة طبيعية انهيار في نظام الانتاج الاقطاعي الذي يعتمد على الأرض والزراعة. كما أدى ذلك- في أوروبا الغربية- الى ظهور الدول القومية. وكانت السلطات الملكية في نضالها من أجل إقامة دولة مركزية لا تستطيع الاعتماد على القوات المكونة من تجميع قوات الامراء والاقطاعيين، لهذا عملت على بناء قوات خاصة تعتمد على الوحدات المستأجرة. ولم تكن روسيا بعيدة عن هذه التطورات كلها. وقد سبقت الاشارة الى ان قيام الدولة الروسية المركزية قد حدث بسبب التطور الاقتصادي الزراعي في روسيا. وحدثت بسبب الغاء الامارات الاقطاعية المستقلة وتوحيدها في دولة مركزية واحدة بعض التبدلات في بناء القوات المسلحة. إذ ان الحكومة الروسية لم تستطع خلال صراعها من أجل توحيد روسيا الاعتماد على القوات المسلحة القديمة المكونة من قوات كبار الاقطاعيين. ومنذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر، أصبحت القوة الاساسية للدولة الروسية تتكون من الملاكين الزراعيين النبلاء الذين استلموا قطعاً من الأرض مقابل خدمتهم العسكرية. وقد سمح هذا الاسلوب بتشكيل جيش كبير من الملاكين الذين ارتبطت مصلحتهم بتقوية الدولة المركزية ودعمها لأنها هي التي وزعت عليهم الأرض. وكان على هذا الملاك مقابل الأرض المستلمة أن يلتحق مع حصانه وأسلحته بالجيش المركزي عند أول اشارة. ولم يعد من الغريب في عهد ايفان الرابع (١٥٣٣-١٥٨٤) أن يرتفع عدد الخيالة (الفرسان) الى مائة الف خيال. كما ظهرت في روسيا أول قوات دائمة في منتصف القرن الخامس عشر، وهي قوات الرماة التي شكلت لضرورة ايجاد قوات دائمة ومنظمة ومسلحة بالاسلحة النارية، لصد الغزوات الخارجية، ولاخماد الثورات الداخلية. وكانت خدمة الرماة تمتد مدى الحياة، وكان الابناء يتوارثونها عن الآباء. وبالاضافة الى الخدمة العسكرية، كان هؤلاء يقومون بأعمال أخرى، كالأعمال الحرفية الصغيرة والتجارة. وكان هؤلاء الرماة يشكلون الحامية العسكرية في المدن،

ويقومون بخدمة الشرطة أيضاً. وكانوا يرتدون لباساً موحداً يتكون من رداء طويل ومن غطاء للرأس. ومن جزمة جلدية. وكان تسليح الرامي يتكون من السلاح الناري ومن السيف ومن بلطة على شكل نصف هلال مركبة على حامل خشبي طويل. وكان كل فوج من الرماة يملك من ٦ الى ٨ مدافع. وبلغ تعداد الرماة في القرن السابع عشر حوالى (٤٠) ألفاً. ووجدت في بنية القوات الروسية أيضاً قوات اخرى هي قوة (قوزاق المدن) وهي قوات دائمة كانت تشكل على الأغلب حاميات مدن الحدود. هذا بالإضافة (قوات القوزاق الأخرى) والتي كان أفرادها يستقرون في حوض الفولغا والدون والجزء الأسفل من (الدنيبر) والتي ظهرت في القرن الخامس عشر. وكانت قيادة القوات تتم بشكل مركزي وعبر (تنظيمات أو قيادات) حكومية وعسكرية خاصة: قيادة عليا، قيادة مشاة، قيادة للمدفعية، قيادة للتسليح... الخ... وكان باستطاعة هذه القيادات حشد (٢٠٠) ألف رجل.

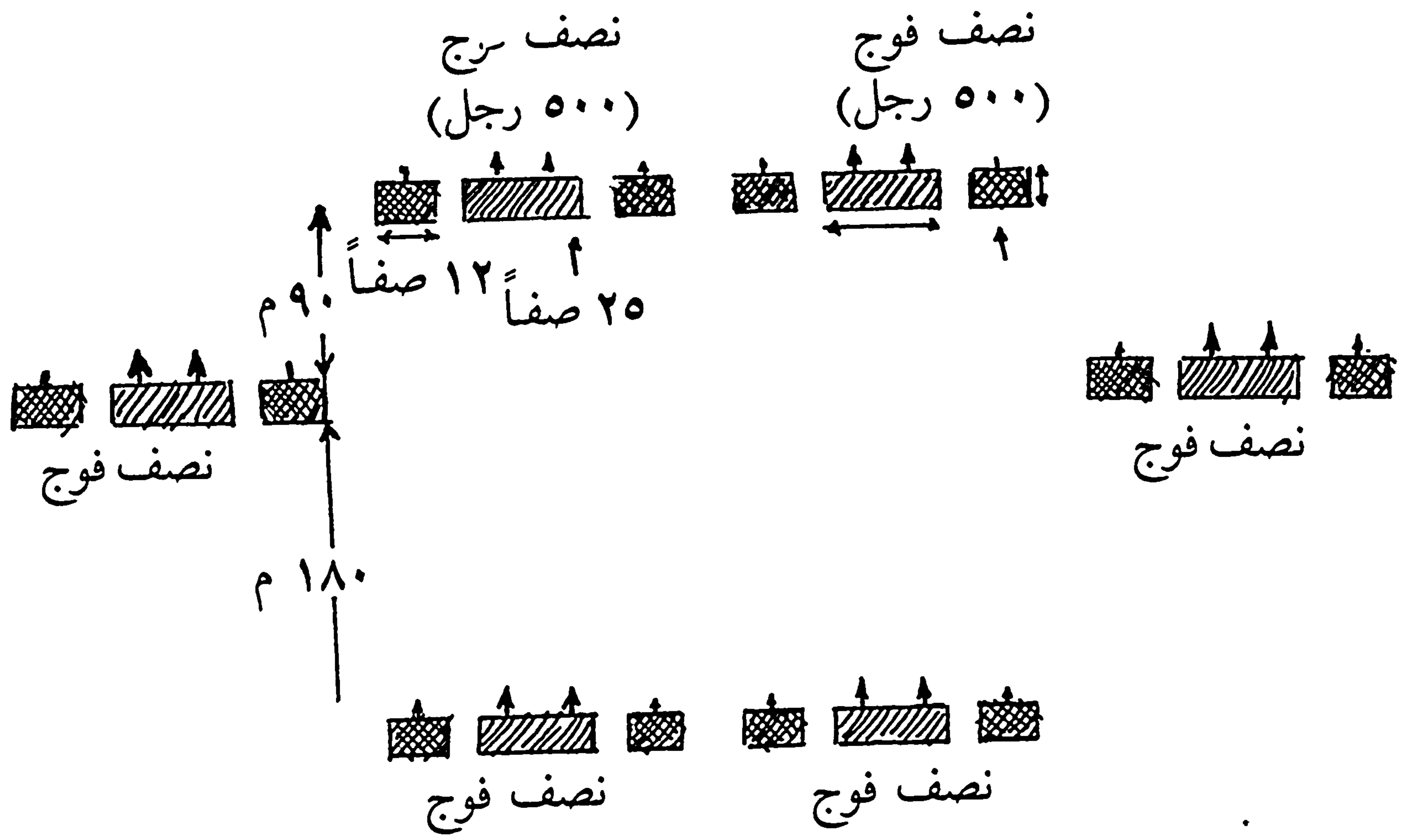
وكان تنظيم القوات يتم حسب الأفواج. وكانت الخيالة هي الصنف الأكثر عدداً من بقية الصنوف، وكانت المشاة تتكون من الرماة ومن قوزاق المدن. وفي منتصف القرن السادس عشر، ونتيجة للتدابير التنظيمية أصبحت المدفعية صنفاً مستقلاً من صنوف القوات. وكانت المدفعية الروسية هي الأقوى والأكثر تطوراً في ذاك الزمن. وكان الحِرفيون الروس أول من اخترع المدافع المحلزنة وكتلة الارتاج في نهاية القرن السادس عشر. وقد صنعت أيضاً مدافع ميدانية خفيفة، وادخلت في تسليح الأفواج مباشرة، ولأول مرة في القرن السادس عشر. وكان تطور السلاح الناري سبباً في تطور التكتيك وفي الترتيب القتالي للقوات.

أخذ الترتيب القتالي للقوات في النصف الثاني للقرن السادس عشر يزداد في الانتشار جبهياً ويقل انتشاره في العمق. الأمر الذي سمح بالاستفادة القصوى من قوة السلاح الناري، وبالاقلال من الخسائر، بسبب النيران المعادية. وبكلمات أخرى، فإن التطور الواسع للسلاح الناري أدى في نهاية القرن السادس عشر وبدء القرن السابع عشر الى الانتقال الى اسلوب تعبوي ـ تكتيكي ـ جديد هو **(التكتيك الخطي)**. كما ان

تطور المدفعية أدى الى تحسين المواقع الهندسية العسكرية وتطويرها. فعند حصار القلاع استخدمت بشكل ماهر الانفاق تحت جدران القلاع وكذلك المتفجرات المصنوعة من البارود لفتح الممرات وللقيام بأعمال التفجير.

كانت البلاد المنخفضة أسبق من غيرها في تبني التطورات العسكرية الجديدة، ففي الفترة من سنة (١٥٦٦) الى سنة (١٦٠٩) خاضت البلاد المنخفضة صراعاً مريراً ضد الاسبانيين. وأدى ذلك الى اجراء اصلاحات في جيش الاراضي المنخفضة أسهمت الى حد بعيد في تطور فن الحرب في بلاد اوروبا الغربية، وفي فن الحرب للجيش السويدي بصورة خاصة، حيث كان هذا الجيش يعتبر في النصف الأول من القرن السابع عشر من أفضل الجيوش الاوروبية. وقد تم ادخال ترتيب قتالي جديد في جيش الاراضي المنخفضة، دخل في تاريخ فن الحرب تحت اسم ترتيب قتال الاراضي المنخفضة (انظر المخطط المرفق عن الترتيب القتالي لجيش بلاد الأراضي المنخفضة). ولم تكن الصفة الاساسية لهذا الترتيب القتالي الجديد، تتمثل في وضع القوات بأرتال المربعات. كما هي الحال في جميع جيوش بلاد اوروبا الغربية، بل وضعها على خطوط، وكان كل خط يتألف من عدة صفوف تتراوح بين الخمسة والعشرة. وهكذا فإن الترتيب القتالي الجديد، يتميز بقلة العمق، وبزيادة طول الجبهة، الأمر الذي أوجد الظروف الملائمة لاستخدام السلاح الناري بشكل أفضل. وهنا يكمن السبب الأساسي للولادة التدريجية للترتيب القتالي الجديد، وهو: (الترتيب القتالي الخطي).

لم تكن امارة كييف وإمارة موسكو بعيدة عن هذه التطورات وهي تخوض صراعاتها لبناء مستقبلها. ففي هذه الفترة، استخدمت في المعارك وسائط الحماية المؤلفة من تروس خشبية متنقلة تحمل صيفاً على العربات وشتاء على الزحافات. وكان الرماة ورجال المدفعية يمارسون عملهم تحت حماية هذه التروس. وهكذا ظهر لأول مرة في الفن الحربي الروسي (التحضير الهندسي للأرض). وقد تحسنت أساليب التدريب في هذه الفترة من الزمن، وأخذ الرماة والمدفعيون يقومون بالرمايات التدريبية المختلفة في ايام السلم. وكان الترتيب القتالي للقوات الروسية في القرن السادس عشر يتألف من



الترتيب القتالي لجيش بلاد الأراضي المنخفضة

خطين الى ثلاثة خطوط. ويمكن ذكر اقتحام القوات الروسية لمدينة (قازان)(٧٠) كمثال على الفن التعبوي- التكتيكي- العالي لدى القوات الروسية. وقد قاد عملية الاقتحام (ايفان الرهيب) سنة (١٥٥٢). وقد تم الاستعداد لهذا الاقتحام بدقة فائقة، وقبل الانقضاض على المدينة - القلعة- دمرت القوات الروسية قوات التتار وأمنت نفسها من المؤخرة. وفي حصار قازان تم استخدام كل صنوف القوات بكفاءة عالية. كما استخدمت نيران المدفعية بكثافة كبيرة. وشيدت ابراج متحركة عالية- ذات طبقات متعددة- يتجاوز ارتفاعها ارتفاع القلاع المعادية مما يشير الى مدى التطور الذي بلغته القوات الروسية في تلك الحقبة التاريخية.

وتبنت القوات الروسية التكتيك الخطي- بحسب المعلومات المتوافرة - في معركة

(٧٠) قازان: (KAZAN) مدينة روسية حالياً، وعاصمة جمهورية التتار المستقلة. وهي تقع على نهر الفولغا.

(دوبرينيتش) سنة (١٦٠٥) حيث دارت معركة بين القوات الروسية والقوات البولونية. وفي هذه المعركة وضعت المشاةالروسية المسلحة بالاسلحة النارية، والتي كان عدد افرادها حوالى (١٨) ألف مقاتل على أربعة صفوف في العمق. وكان رجال الصفين الأولَ والثاني يرمون في الوضعية الجاثية. ورجال الصفين الثالث والرابع يرمون واقفين. وكان الجميع يسمحون للعدو بالتقدم حتى المدى المجدي ثم يرمون بآن واحد بكافة اسلحتهم النارية.

٤ـ بطرس وتيار التاريخ.

هناك خمسة قرون تفصل بين موقعة الجليد، وموقعة بولتافا. وهناك ثلاثة قرون ونيف تفصل بين موقعة كوليكوف واستيلاء بطرس على آزوف. وقد ظهر من خلال العرض السابق أن جذور الحروب والصراعات التي تولى بطرس الاكبر قيادتها تضرب بعمق في التاريخ، وتمتد بعيداً عبر الزمن. فالحرب ضد روسيا من قبل الالمان ـ الجرمان ـ والسويديين والبولونيين قد دفعت روسيا للبحث عن مخرج وجدته ببناء قدرتها الذاتية. كما ان صراع روسيا ضد المغول ـ التتار ـ قد استمر خلال عصور متتالية بدأت بما يمكن تسميته الدفاع الاستراتيجي من قبل امارة موسكو. حتى اذا ما ضعفت هيمنة التتار، وحتى اذا ما وهنت قوى السويد، ظهرت امارة موسكو للوجود وقد اختزنت من القدرة ما يمكنها من جولة الثأر والانتقال من الدفاع الاستراتيجي الى الهجوم الاستراتيجي.

ويظهر من خلال العرض السابق أن عملية بناء القدرة الذاتية لامارة موسكو قد استمرت طوال اكثر من خمسة قرون. حتى إذا ما جاء (بطرس) الى الوجود، كان عدد افراد الشعب الروسي قد بلغ العشرين مليوناً، وهو عدد ضخم في بداية القرن السابع عشر. إذ كان باستطاعة هذا الشعب تجنيد وحشد (٢٠٠) ألف مقاتل، تقودهم ادارة واحدة قوية وحازمة.

ويظهر من خلال العرض السابق أيضاً أن القدرة الاقتصادية التي توافرت لامارة موسكو قد ساعدتها على فرض هيمنتها على بقية الامارات الروسية، الأمر الذي ضمن قيام جبهة داخلية قوية ومتماسكة. كما أن القدرة الاقتصادية قد ساعدت أيضاً على بناء قوات مسلحة منظمة ومدربة، تستطيع مجابهة التحديات الخارجية والداخلية. ولا حاجة للقول ان أهمية العامل الاقتصادي الذي برز واضحاً في مجال بناء القدرة الذاتية لامارة موسكو، هو من العوامل التي أطمعت الدول المجاورة على مهاجمة روسيا ونهبها في مرات متتالية، غير أن نجاح امارة موسكو في استثمار هذا العامل وتسخيره لدعم القدرة الذاتية قد حول (الثراء) من نقمة كان الشعب الروسي يدفع ثمنها الى (نعمة) ضمنت لروسيا القدرة لبناء مستقبلها المستقل لما فيه مصلحة الشعب الروسي.

هناك أيضاً، ومن خلال العرض السابق، نقطة تستحق التوقف طويلاً عندها في مجال تطور فن الحرب الروسي. وهذه النقطة هي تأثر مدرسة الحرب الروسية بمذهبين عسكريين متمايزين: ١ـ اولهما فن الحرب الاسلامي. ٢ـ وثانيهما: فن الحرب الغربي. وقد أخذت المدرسة الروسية ـ عن طريق المغول (التتار) وعن طريق الاتراك العثمانيين مبدأ الحسم، والمطاردة، والاستخدام الجيد للفرسان ـ الخيالة ـ سواء في قتال الصدمة أو في استثمار النصر وتطويق القوات وابادتها ثم مطاردتها لمسافة بعيدة. وأخذت عن مدرسة الحرب الغربية، تنظيم القوات واستخدام المدفعية، (والتشكيل الخطي) في ميدان المعركة. ويظهر ذلك مرونة المدرسة العسكرية الروسية واستعدادها لتبني الطرائق والأساليب التي تتوافق مع متطلباتها ومع ظروفها القتالية الخاصة.

هنا لا بد من القول ان تطور مدرسة فن الحرب الروسية قد حدث بصورة بطيئة، مما ساعد على استيعاب كل الامور المستحدثة، سواء في مجال تطور التسلح أو في مجال طرائق ادارة الحرب، أو على مستوى العمليات والتكتيك. ولقد كان هذا التطور البطيء ـ على كل حال ـ متوافقاً مع التطور الذي أحرزته امارة موسكو في المجالات الأخرى ـ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتقنية ـ وان هذا التكامل في التطور يؤكد مبدأ الثبات والرسوخ، بمعنى أنه حتى لو كان التطور بطيئاً ـ استمر زهاء خمسة قرون ـ غير أن خط مساره بقي متصاعداً بصورة ثابتة وبقوة متعاظمة حتى بلغ أهدافه التي ظهرت على شكل تبدل جذري حاسم بظهور (بطرس الأكبر) وبما حققه من أعمال ومنجزات.

عند هذه النقطة يظهر اكثر من سؤال: إذا كان تطور روسيا قد سار بثبات عبر مئات السنين، واذا كان (بطرس الاكبر) قد جاء تتويجاً للجهود المبذولة عبر فترات زمنية متطاولة، فلماذا أخذت منجزات القيصر بطرس شكل (القفزة النوعية المباغتة)؟ أو شكل التحول الثوري وفقاً للمصطلحات الشائعة؟ ثم إذا لم تكن هناك ثمة طفرة نوعية واسعة قد خطاها قيصر في مجال التطور، فلماذا ظهرت المقاومات الكثيرة في وجه ما أسماه (الاصلاحات)؟.

ان الاجابات عن هذه الأسئلة ـ وأمثالها ـ أشد تعقيداً من ظواهر الاسئلة

البسيطة. لقد بدأ بطرس حياته العسكرية بمهاجمة دار الخلافة الاسلامية، وبالاستيلاء على آزوف- في غفلة من الزمن - . وكان لهذا الانتصار في حياة الشاب بطرس اثره العميق على كل اعماله ومنجزاته التالية. إذ بات أشد جنوحاً للانفراد بالسلطة، وأكثر نزوعاً الى تدمير مراكز القوى الداخلية. يضاف الى ذلك نشأته المضطربة، وعيشه في وسط مؤامرات أهله، الأمر الذي جعله شديد القسوة على كل من يناوئه أو يعارضه. فكان من الطبيعي أن تظهر ردود فعل عنيفة لم تلبث أن أخذت أشكالاً مختلفة (بما فيها مؤامرة ابنه الكسي ضده). واذن فالقضية لم تكن قضية مقاومة للاصلاح- بحسب ما زعمه بطرس- وانما هي مقاومة لاستغلال الاصلاح من أجل ممارسة الارهاب الداخلي والقمع الوحشي. والدليل على ذلك هو استمرار روسيا على الخط الذي ابرز معالمه (بطرس الاكبر) والتزمت به عائلة (رومانوف) حتى آخر عهدها في الحكم.

لم تكن هناك طفرة نوعية واسعة ومباغتة في تطور روسيا- خلال ايام بطرس الاكبر- تلك حقيقة لا تقبل الكثير من الجدل أو المناقشة. وحتى في مجال الاصلاح الداخلي لم يظهر هناك ما يثير حقاً. فبناء (بيتر سبورغ) ليس أول عمل يقوم به حاكم أو أمير على وجه الأرض. واذن، فماذا ترك القيصر بطرس للاسكندر المقدوني الذي سبقه بآلاف السنين؟ كما أن الانفتاح على الغرب، لا يشكل انجازاً حضارياً (رائعاً). وابطال حلق الذقون، وفرض الضريبة عليها لا يشكل بدوره عملاً خارقاً للطبيعة. فقد استطاع الحاكم الفاطمي المجنون فرض عادات على شعب مصر اكثر خطراً من عادة (حلق الذقون).

واذن، فماذا بقي للقيصر بطرس الاكبر إذا كان مجرد قائد، او حاكم، وصل الى السلطة عن طريق الوراثة ثم قام بدوره وهو فوق عجلة تيار التطور التاريخي؟ وهل كان من المحتمل أن يقوم شخص آخر بدور بطرس الاكبر طالما أن مجموعة الظروف قد التقت بتيار التاريخ في الزمن المناسب؟ ان الاجابة عن السؤال الثاني تدخل في اختصاص (الغيبيات) أما الاجابة عن السؤال الأول فتؤكد اهمية دور الفرد في تفجير

الحدث التاريخي ولكن ما هو هذا الحدث التاريخي الذي اقترن بأعمال بطرس الاكبر ومنجزاته؟ .

لقد استطاع بطرس الاكبر قيادة الحرب وادارتها بكفاءة عالية، وأمكن له توحيد امارات روسيا، ونجح في قهر اعداء بلاده السويديين. كما نجح في الافادة من التناقضات بين دول العالم الاسلامي، (افغانستان وفارس بصورة خاصة) للتوسع على حساب العالم الاسلامي وضم اجزاء واسعة لحكم بلاده. ويظهر ذلك أن بطرس كان على معرفة تامة باحوال الدول المجاورة- والتي كانت معادية باستمرار وبصورة ثابتة لبلاده، فأفاد من ظروف ضعفها وتمزقها ليوجه اليها ضرباته الحاسمة، ولينتقم لبلاده من كل هزائمها ومعاناتها السابقة، والتي استمرت قروناً عديدة. وكان نجاحه كبيراً في حقل (السياسة الخارجية) بقدر ما كان أنجازه ضخماً في استخدام القدرة العسكرية لبلاده من أجل تحقيق الانتصارات الخارجية.

هنا تعود القضية الجدلية لتفرض ذاتها بكل ابعادها. وهي قضية الارتباط العضوي الوثيق بين قوة الجبهة الداخلية وقوة السياسة الخارجية. فهل كان باستطاعة القيصر بطرس الاكبر تحقيق تلك الانتصارات لو-لم يدعّم جبهة الداخل بما اسماه (اصلاحات)؟ .

لقد أكدت التجربة التاريخية أن قضية الارهاب والرعب لا علاقة لها بقضية قوة الجبهة الداخلية ومتانتها. فالقضية هي قضية تنظيم للامكانات والموارد. وكان لدى القيصر بطرس كل الامكانات التنظيمية التي استخدمها منذ بداية حياته للوصول الى السلطة ولحشد كل القوى ضد اعداء الخارج. واذن، فان استغلال الاصلاحات والانتصارات الخارجية ذريعة للقمع الداخلي هو النقطة غير المضيئة في حياة بطرس الاكبر. ولقد كان هذا السبب يقيناً، وبحسب كل الشواهد المتوافرة، هو العامل في نقمة حاشية القيصر بطرس ضده، وتألب أقرب أقربائه عليه- حتى زوجته الثانية كاترين-.

ليست القضية على كل حال قضية التماس الاعذار، أو البحث عن الذرائع،

للدفاع عن أعمال. القيصر بطرس أو أدانتها، فالقضية في أساسها هي قضية طرح (التجربة التاريخية) في اطار ظروفها الزمنية والمكانية، وحتى الشخصية، وذلك بهدف الافادة من التجربة ومن كل تجربة قدر المستطاع. وعند هذه النقطة بالذات، تظهر أهمية تجربة القيصر بطرس وتبرز فائدتها، من حيث أنها تجربة بناء امة في حياة رجل، وتجربة حياة رجل في بناء أمة.

٥- بطرس الاكبر، وفن الحرب.

اذا كانت الحياة الخاصة للقيصر بطرس تحتمل الجدل والنقاش، واذا كانت طريقة ادارة الحكم على المستوى الداخلي تقبل وجهات النظر المختلفة، والآراء المتباينة. فإن منجزات بطرس الاكبر في مجال فن الحرب تظهر مضيئة ساطعة لا تقبل الجدل ولا تحتمل النقاش.

لقد دخل بطرس الاكبر عالم فن الحرب كمصلح كبير، وكمجدد مبدع، لم تقف نتائج أعماله عند حدودها الاقليمية الضيقة وانما تجاوزت حدود روسيا لتبلغ الأفق العالمي في عصره. وكان في مقدمة انجازاته على مستوى **السياسة الاستراتيجية**: أولاً- نقل الحرب الى البلاد المجاورة وابعادها عن حدود بلاده. ثانياً: وضوح الهدف وربط الصراع المسلح بالصراع السياسي. ثالثاً: القدرة على حشد كل القوى والوسائط لخدمة هدف الحرب. رابعاً: إقامة مجتمع جديد يستطيع الاستجابة لمتطلبات الادارة المركزية. **وفي مجال مبادىء الحرب**، يظهر التزام بطرس الاكبر بمجموعة من الاسس اهمها: أولاً: تحقيق المباغتة ويظهر ذلك واضحاً في احتلال (آزوف). كما يظهر في موقعة (بولتافا). ثانياً: الامساك بالمبادأة، وعدم السماح لخصومه بفرض زمن المعركة ومكانها. ثالثاً: تأمين القدرة الحركية العالية للقوات بالاعتماد اساساً على قوة الفرسان (خيالة الدراغون). الأمر الذي ساعد القيصر بطرس على نقل القوات ما بين الجبهات المتباعدة. رابعاً: التأمين الاداري للقوات، ويظهر ذلك بوضوح من خلال اهتمام بطرس الدائم بتأمين متطلبات القوات وتجهيزها وتسليحها باحدث الاسلحة المتوافرة. والأخذ بطرائق القتال المتقدمة.

لقد أصيب بطرس الاكبر بصدمة كبيرة على ضفاف (نهر بروث) حيث تهدده العثمانيون وجيشه بالفناء، وخرج من حربه مع الأتراك وحلفائهم المغول (التتار) بشروط مهينة وكان سبب هزيمته هو ما اصابه من غرور باستيلائه المباغت على (آزوف) وتجاهله للقدرة العسكرية الاسلامية. (حيث كان ميزان القوى الى جانب العثمانيين، بما يعادل سبعة الى واحد) غير أن ما خسره بطرس الاكبر في ميدان القتال استطاع معاوضته بفضل استثماره لتناقضات العالم الاسلامي من جهة، وبفضل استثماره ايضاً لظروف دار الخلافة الاسلامية التي كانت مشتبكة في حالة حرب دائمة على جبهة اوروبا. وهنا تكمن كفاءة بطرس العالية في مجال السياسة الاستراتيجية، إذ أنه عرف كيف يوظف القدرة العسكرية المتوافرة له، من أجل فرض شروطه السياسية. فوضع بذلك أساس السياسة التوسعية لروسيا على حساب العالم الاسلامي.

واستطاع بطرس الاكبر الإخلال بالتوازن الاوروبي عندما فرض سيطرته العسكرية على بحر البلطيق. وقهر اكبر قدرة عسكرية في الغرب (السويد) ودفع قواته الى شمال الامارات الجرمانية. غير أنه استطاع اعادة التوازن بسرعة، بفضل تحالفه مع فرنسا- ولو في حدود ضيقة- وبفضل اتباع سياسة مرنة مع الامارات التي سيطرت عليها روسيا. فضمن بذلك تحقيق التوازن بين هدف الحرب وغاية السلم.

وكان بطرس مجدداً في أساليب تعبئة القوات وحشدها وتنظيمها، بقدر ما كان مبدعاً في ادارة الحرب، الأمر الذي ساعده على اكتساب ثقة جنده وقادته.

لقد استطاع بطرس تجسيد طموح شعبه، وتمكن من ابراز اهداف امته. ونجح في انجاز تطلعات مواطنيه. وكان ذلك هو سبب نجاحه- بالدرجة الاولى-. فلقد خاضت قواته الحرب بروح معنوية عالية. وكانت هذه الروح برهاناً ثابتاً على ما تميز به القيصر بطرس من كفاءة قيادية عالية. ولقد اتبع بطرس سياسة اسلافه في الانفتاح على الغرب، غير أنه عمل باستمرار على دعم الاصالة الذاتية لأمته، بدلالة نقل العلوم والمعارف الى اللغة السلافية، وتطوير هذه اللغة حتى تصبح سهلة المتناول، سهلة المأخذ، قادرة على الاستجابة لمتطلبات التطور.

وكان من اهداف بطرس جعل بلاده جسراً يصل بين الشرق والغرب. ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً. ولم يكن هذا الجسر مجرد معبر تجاري. وانما كان جسراً لالتقاء الحضارات، أفادت منه روسيا لاستيعاب كل ما يفيدها. وقد بدأت هذه الفائدة (بفن الحرب) ثم تطورت لتشمل كل مجالات الحياة، وأولها (الاقتصادية والسياسية).

ويبقى بطرس الاكبر بعد ذلك انساناً، له نوازعه وله حوافزه، له هناته وله فضائله. وقد يكون افرازاً من افرازات التطور لتاريخ شعبه، غير أنه يبقى علماً بارزاً فوق تيار الاحداث. ولقد استطاع السير ببلاده قدماً نحو تحقيق اهدافها وطموحها. وهذا في حد ذاته كافٍ ليكون (أباً لشعبه) وفقاً لما عبر عنه (الاكليروس) و (جهاز الدولة) عندما قرر رفعه الى ما فوق مستوى (الحاكم) أو (صاحب السلطة).

وتمضي القرون متتابعة، فتطمس الكثير من الحقائق، وتبرز الكثير من الاساطير. غير أن هناك حقيقة تبقى ساطعة على الأيام، متألقة على جدار الزمن، وهي: أن بطرس كان تلميذاً للتاريخ وصانعاً له. وكان تلميذاً لفن الحرب واستاذاً له. ويبقى بعد ذلك وقبله (الأب لشعب روسيا والمؤسس الحقيقي لبنيان دولته).

قـــــراءات

(١)

بطرس يحكم على ابنه الكسيس بالموت

كان من نتيجة الاصلاحات التي قام بها بطرس الاكبر ، أن تشكلت ـ كالعادة ـ جبهة قوية مضادة للاصلاح. ووجدت هذه الجبهة في ابن بطرس (الكسيس) اداة للتآمر، وساعد في ذلك كره الكسيس لأبيه وميله لأمه، التي ابعدها بطرس عنه بعد أن تزوج بكاثرين. وزاد موقف الكسيس سوءاً بسبب اضطهاده لزوجته وميله الى فتاة سيئة السمعة، وحملت زوجة الكسيس آلامها حتى اذا ما وضعت مولودها الثاني (بطرس) فارقت الحياة. وكانت وفاة (شارلوت) زوجة الكنسيس يوم ٢٧ اكتوبر ـ تشرين الاول ـ ١٧١٥. وفي هذا اليوم ذاته، وصلت الى (الكسيس)رسالة من والده بطرس ـ ترجمة نصها كالتالي:

بيترسبورغ (بتروغراد) ١١ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٧١٥ ـ

«**تحذير لولدي:**

لقد تمكنت بعد حروب طويلة من الانتصار على الاسوجيين ـ السويديين ـ اعدائنا الوراثيين، ولكن حزني يفوق فرحي ، عندما أرى أن الشخص الذي يجب أن يخلفني لا يصلح للحكم ولادارة دفة البلاد. وليس له ميل الى الحروب. إنني أطلب منك أن تحارب لغاية شريفة وقضية عادلة. وأريد أن أراك وأنت تميل الى فن الحرب وتمارسه، لأنه أهم أركان الامبراطورية من اجل ادارتها الحسنة والدفاع المجيد عن حياضها. لا

تتوهم أن قوادك يستطيعون القيادة بدلاً منك، فإن كل واحد منهم يحاول أن يفعل ما يرضيك، لا ما يرضي ضميره، فهم يحبون ما يحب رئيسهم، ويهملون ما يهمل. ولست أدري كيف يمكنك أن تعاقبهم اذا لم تكن تعرف مهنتهم؟.

أتحتج بضعف صحتك؟ انها حجة واهية، لأنني لا أطلب منك أمراً فوق طاقتك، وانما أطلب منك أن توجه ميولك، واهتماماتك، الى الشؤون العسكرية. وتذكر ملك فرنسا السابق، فإنه قلما كان يظهر بين جنوده، ولكنه كان شديد الاهتمام بشؤونهم، وهذا ما مكنه من انجاز الاعمال العظيمة، ورفع مملكته الى أعلى مراتب المجد. هذا هو الفكر الذي يقلقني، فإنني عرضة للموت كسائر البشر، فلمن أدع هذا الحقل الذي بدأت بزراعته بمعونة السماء، وقد أخذ نبته ينمو؟ أأتركه لمن دفن وزناته في الأرض؟(*) وهل أذكر من أخلاقك سوى عنادك وطبعك الرديء؟ لقد تذمرت وشكوت وعاقبت فلم ينجح فيك شيء، ولا استطعت اصلاحك، لأنك لا مطمع لك من الحياة سوى اقامة الولائم في قصرك، ولا يهمك خراب العالم أو عماره. فأنا أفكر في جميع هذه الأمور بعين القلق والاهتمام. ولما كنت قد فشلت في محاولتي أصلاحك، فقد رأيت أن أبعث اليك بهذا الانذار الأخير، وأمهلك مدة أخرى لاصلاح نفسك. فاذا خاب أملي فيك، نبذتك، وبترتك كما يبتر الجراح العضو الأشل. ولا تتوهم أنني أضن بك بحجة انك ابني الوحيد، أو أن غرضي الحقيقي هو أن أخيفك فقط. بل ثق بأنني أفعل ما قلته، لأنني ان كنت لم أحجم عن بذل نفسي في سبيل ترقية هذا الوطن العزيز، فكيف لا أبذل شخصاً آخر مثلك لا نفع له. فأنا أفضل الغريب الذي يستحق، على الابن الذي لا يستحق».

ورد الكسيس على أبيه القيصر بطرس بالرسالة التالية:

«أبي وولي نعمتي العظيم.

عدت اليوم من جنازة زوجتي- شارلوت- فتلقيت رسالتك، وتلوتها، وليس في

(*) الاشارة هنا هي الى ما ورد في -انجيل متى- ص ٢٥: ١٤- ٣٠.

وسعي أن أجيبك بشيء سوى أن التمس منك اعفائي من حمل تاج روسيا، وحرماني اياه حسب ارادتك لأنني لست جديراً به. ولست أقول هذا القول عن عدم روية، وإنما أقوله، وأنا متضرع اليك، لتجيبني الى ملتمسي هذا، لأنني لا أرى نفسي أهلاً للعمل الذي أمامي، نظراً لضعف ذاكرتي، ونحول جسمي، وفتور عزيمتي، وهي مصائب تعاقبت عليَّ على اثر الأمراض العديدة التي انتابتني وتركتني غير أهلٍ لتولي مقاليد الأحكام. وغير خافٍ على والدي أن العرش يقتضي رجلاً أقوى مني عزماً، وأوفر همة. ولهذا لا أرى لي حقاً في وراثة جلالة أبي، ولا سيما بعد أن رزقتني السماء بأخ في وسعه أن يحل محلي(*) ويشهد الله أنني أتمنى لأخي هذا الفخر، وانني مخلص في ما تخطه يدي الآن. وانني استودعك ولديَّ بين يديك. ولا أطلب منك إلا ما يكفي للقيام بأودي وأودهما في ما بقي لنا من الحياة. وعلى كل فإنني مفوض الأمر الى والدي يفعل ما يشاء».

ولدك وعبدك الخاضع
ـ الكسيس ـ

غضب القيصر بطرس لهذا الرد، غير أنه تمهل في ارسال رسالة جديدة حتى كانون الثاني ـ يناير ـ ١٧١٦. وقد وصلت هذه الرسالة الى الكسيس وهو في مرحلة النقاهة من مرض كاد يقضي عليه. وكانت ـ ترجمة ـ نص رسالة القيصر بطرس:

«... لا أراك تتحدث إلا عن الوراثة، مع أنك لم تجبني حتى الآن عن الأمور الشاغلة جميع أفكاري، انني لا اجهل ضعف عزيمتك، وعدم اكتراثك بالعرش، ويلوح لي أنك نسيت، فإن كنت لا تخشاني الآن، فكيف تحترم وصيتي بعدي، فكيف أثق بأيمانك؟ ان المرء انما هو مجموعة أكاذيب ـ كما قال الملك داوود ـ ومع ذلك أراك تحاول أن

(*) مشيراً بذلك الى ولادة القيصرة كاترين مولوداً بتاريخ ٢٨ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ وقد حاول بعض الكتاب تبني الزعم القائل بأن بطرس قد افتعل بتحريض من زوجته الثانية كاترين ـ الأزمة مع ابنه الكسيس لحرمانه من حق الوراثة، ونقل هذا الحق الى المولود الجديد، غير أن هذا الزعم لا يستند الى أي دليل أو برهان.

تتظاهر أمامي بالاخلاص . وما أنا بجاهل أن أصحاب (اللحسى الطويلة)(**) لن يجدوا صعوبة في سبيل تسييرك حسب أهوائهم بعد موتي. وكذلك لا أجهل، ولا يجهل أحد، أنك تكره العمل العظيم الذي قد بدأت به. وانك ستهدم بعد موتي ما قد شيدته لأجل شعبي ومملكتي. فيجدر بك أن تغير طباعك، وتظهر أنك جدير بوراثة عرشي، وإلا فخير لك أن تترهب وتدخل الدير ، واعلم أن نفسي لن تجد راحة حتى تستقر بي الحال. فأجبني بلا ابطاء، كتابة أو شفهاً. واذا لم تطعني عاملتك كمجرم».

ورد الكسيس- على رسالة ابيه القيصر بطرس:

«. . . تلقيت رسالتك في هذا الصباح. ويسوؤ ني انني لا أستطيع أن أجيبك عليها مطولاً بسبب مرض قد ألم بي. وقد عزمت أن أدخل الدير. فأرجو أن تصدر لي اذُنك الكريم بذلك».

كان بطرس على وشك خوض معركة (مكلنبرغ) فزار ابنه الكسيس، وأمهله فترة ستة اشهر أخرى حتى يعيد تقويم موقفه، ويستجيب لرغبة أبيه. ومضى بطرس الى الحرب. وناقش الكسيس الموقف مع انصاره، وانصار أمه، وأخذ بنصيحة أعداء أبيه، فقرر الهرب الى فيينا. ومضى بعد ذلك متنقلاً مع عشيقته وثلاثة من حرسه- بصورة تنكرية- ما بين مدن النمسا وألمانيا وايطاليا. غير أن عيون بطرس (جواسيسه) لم تلبث أن أخذت في تقصي أثره حتى عثرت عليه، وأرسل بطرس رسالة مع (تولستوي) بتاريخ ٢٢ تموز - يوليو- ١٧١٦ جاء فيها:

«. . . اذا خضعت لمشيئتي، أنلتك عفوي، وغفرت لك جميع ذنوبك. واذا رفضت فإنني بالسلطة الممنوحة لي من العلاء ألعنك الى الابد. ثم أعاقبك على خيانتك للوطن».

(*) (*) اشارة الى رجال الحزب الرجعي الذين احتجوا على منشور بطرس الاكبر القاضي بحلق اللحى تشبهاً بالسواد الأعظم من الاوروبيين.

كان (الكسيس) يحلم بقيام ثورة ضد أبيه، تطيح به، وتنادي بالابن (الكسيس) قيصراً فتحمله من منفاه الى عرش روسيا. وكان خصوم أبيه يغذون فيه هذه الأوهام. ولكن ها هو (تولستوي) يحكم الحصار عليه، ويتمكن من اقناعه بالرضوخ لمشيئة أبيه القيصر بطرس. وينقاد (الكسيس) لرغبة والده، ويعود الى روسيا. فتبدأ على الفور التحقيقات الواسعة مع (الكسيس) ذاته، ومع كافة العناصر المتآمرة معه حتى اطلق الروس على تلك السنة ـ سنة ١٧١٧ـ (صفة سنة التحقيقات في موسكو). وتدحرجت رؤوس كثيرة. ثم جمع بطرس أكابر الدولة والاعيان والاكليروس ـ وعدد أعضائه ١٤١ عضواًـ وقال لهم ما يلي:

«ان النواميس الإلهية والشرائع البشرية تحذر على الناس الحكم على أولادهم. أما نحن فلنا السلطة المطلقة على الحكم، فالذي ظهر من ولدنا الكسي علناً، يجعلنا نحكم عليه. ولكن لما كان الطبيب الحاذق لا يخاطر بعلاج نفسه بنفسه، بل يستدعي طبيباً آخر لمعالجته، فهكذا أنا، أخشى أن أتهور في حكمي على ولدي هذا، بعد أن أقسمت أن أعفو عنه. فأرغب اليكم إذن أن تحكموا عليه بمقتضى حقوق الدولة والوطن والأمة. ولا تسلكوا سبيل التملق. فقد تبينت لكم أفعاله، فقد ازدرى بالعلوم والمعارف، وحاد عن سبيل اللياقة مع زوجته، وتعلق بفتاة من رعاع القوم. وذهب الى ـ فيينا ـ ودخل في حماية النمسا، وبذلك هتك حرمتي، وخانني خيانة كبرى، وبعد أن عفوت عنه رحمة له وشفقة عليه، عاد يتآمر مع أعدائي على قتلي، فاحكموا أنتم بما هو حق وعدل».

وصدر الحكم على الكسي بالموت، بعد مداولات مستفيضة، وارادت القيصرة كاترين التوسط للعفو عنه، غير أن بطرس رفض وساطتها، كما رغبت من بطرس وتمنت عليه عدم تلاوة الحكم على ابنه علناً، فلم يسمع لها بطرس، وأحضر أبنه ـ الكسي ـ وقرأ عليه صورة الحكم علانية، وعلى مسمع من الجميع. فلما سمع الكسيس الحكم، أصابه تشنج أفقده وعيه، فسقط أرضاً مغشياً عليه، وعندما أفاق طلب مقابلة أبيه، ولما التقيا،

بكى كلاهما بدموع الندامة والحنو، وطلب الولد من الوالد أن يعفو عنه، فعفى عنه علانية. ولكنه مات بحضور مجلس الاكليروس في اليوم الثاني من قراءة الحكم المذكور فيما يلي:

نص الحكم: في ٢٤ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٧١٨

«انه بحسب الأمر الصادر عن الامبراطور بطرس، والموقع عليه بخطه بطلب تحقيق دعواه على ابنه الكسيس بتروفتش، لما وقع منه من المخالفات ضده، كان من أمرنا نحن الموقعين على هذا الحكم ادناه من وزراء وأرباب شورى وقادة عسكريين، بعد أن اجتمعنا عدة مرات وسمعنا أيضاً قراءة الرسائل ـ المتبادلة ـ بين الوالد والولد. وكذلك ما اعترف وأقر به على نفسه مما هو بخط يده، ومما اعلنه شفاهاً أيضاً لوالده، أمامنا نحن المعنيين من الجانب الامبراطوري لأجل تحقيق هذه الدعوى. هذا وان كان بمقتضى قوانين الدولة الروسية ليس من حقوقنا لكوننا رعايا وتابعين للذات الامبراطورية المتولية التي فوضتنا الرأي والنظر في هذا الأمر. إلا أننا انقياداً لأمرها اجتمعنا للمذاكرة. وبعد التفكير والتأمل بذمة مسيحية، دون خوف ولا تملق ولا مراعاة خاطر الامبراطور. بل بكل ما يوافق هذه القضية من الأحكام الالهية المنصوص عنها في التوراة والانجيل والقوانين المدنية المتفق عليها في جميع البلاد. استقر رأينا بدون مناقضة ولا مخالفة على أن ـ الكسيس بتروفتش ـ يستحق القتل. فحكمنا عليه به نظراً لما ارتكبه من الكبائر المذكورة، ولما صدر عنه من الموبقات الجسيمة في حق والده. نعم، ان ذات الامبراطور وعده بمقتضى الأمر المرسل اليه مع كل من تولستوي وورومانسوف بالعفو عما وقع منه من الفرار والعصيان، اذا عاد من المحل الموجود فيه بالطوع والاختيار، الا أنه غير مستحق لهذا العفو، والمسامحة، نظراً لما اعترف به من سوء القصد والنية، والتصرف بالأعمال القبيحة»(*).

(*) تاريخ بطرس الكبير (نخلة قلفاط) ص ٢٦٦ـ ٢٦٧.

قـــــراءات

(٢)

وصية بطرس الاكبر لخلفائه.

نسبت الى بطرس الاكبر- بعد موته- وصية بها اختط لخلفائه نهج السياسة، وما يجب عليهم عمله لنجاح البلاد وسعادة الأمة. غير أن الآراء متضاربة فيما اذا كانت تلك الوصية من بطرس ذاته، أو أن احداً صنفها ونسبها إليه. وقد أنكر الروس حقيقتها، وقالوا انها مجرد اختلاق، وأنه ليس لبطرس علاقة بها. وكان أول من أشاع أمر هذه الوصية هو رئيس وزراء فريدريك العظيم (الوزير بودولز) الذي أخبر مولاه بأن سفير روسيا في برلين، قد أسر إليه بأنه توجد لائحة يتمشى عليها القياصرة في سياستهم، وفيها ان على روسيا المحافظة على صداقة بروسيا، وأن تكون أبداً صديقة حميمة لها. وقيل ان أباً بولونياً- قساً- قدم لفريدريك وليم- صورة عن الوصية المذكورة، كان قد نقلها بنفسه عن النسخة الأصلية التي عثر عليها في وثائق الحكومة الروسية. وفي سنة (١٨١٢) نشر المسيو لا سير- أحد الكتبة في وزارة الخارجية الافرنسية، صورة تلك الوصية في احدى الصحف الباريسية. وقيل ان النسخة التي قدمت لفريدريك هي من وضع - لا سير- المذكور، الذي أذاعها على تلك الصورة لمآرب سياسية. **ولكن، ومهما كان عليه الأمر، فقد اعتبرها القيصر نيقولا الأول، وصية بطرس الحقيقية، وجعلها دستوراً للعمل في سياسته. وفيما يلي الترجمة الدقيقة لتلك الوصية:**

أولاً: يجب أن تشتبك روسيا دائماً بحرب مع احدى الدول المجاورة لها، أو غيرها، حتى يبقى جندها في حالة استعداد دائم للقتال، وحتى تكون له باستمرار الأولوية في خوض الحروب.

ثانياً: عليها أن تجتذب اليها مشاهير الرجال من الأجانب، لا سيما رجال الحرب، وأن تحبب اليهم الإقامة فيها، والدخول في خدمتها.

ثالثاً: يجب ألا تدع فرصة اختلاف الدول الاوروبية بعضها ببعض، أن تفوتها، بدون أن تتدخل في امورها، لا سيما ألمانيا جارتها.

رابعاً: يجب على معتمدي الروسية- سفرائها وقناصلها- أن يدسوا الفتن في بلاط الممالك الأجنبية وبين مجالس شوراها- اجهزتها التشريعية- مما يعود نفعه على روسيا. وأن لا ينتخب لعرش بولونيا الا من كان موالياً لروسيا، ومخلصاً في خدمة مصالحها.

خامساً: يجب علينا أن نقتطع ما يمكن اقتطاعه من اسوج (السويد) ونجعل عداوة دائمة بينها وبين الدانمرك.

سادساً: ليختر امراء روسيا وملوكها زوجات لهم من المانيا. ولينظر في الوسائل التي يمكن لها تطوير العلاقات معها، وزيادة التقرب منها.

سابعاً: تجب ملاطفة الانكليز لأجل مصالحنا التجارية، فهي تحتاج أشجارنا لبناء سفنها، ونحن نحتاج الى مصنوعاتها. فنتبادل الفائدة، وتروج التجارة.

ثامناً: يجب توسيع الحدود الروسية في كل اتجاه، للوصول شمالاً الى بحر البلطيق، وجنوباً الى البحر الأبيض المتوسط.

تاسعاً: يجب على روسيا العمل باستمرار لاحتلال القسطنطينية، لأن من يمتلكها، يسيطر على العالم. كما يجب السيطرة على تجارة الهند، لأن اكتسابها يغنينا عن ذهب الانكليز. وللوصول الى الهدف الأول، يجب متابعة الحرب باستمرار ضد الاتراك، وأن تكون لنا مواقع محصنة على شواطيء بحري البلطيق والأسود. ويجب أن نحتل الخليج الفارسي.

عاشراً: يجب بذل كل الجهود الممكنة للحصول على معاهدة ثابتة مع النمسا، ودعمها فيما تريد من التفوق على ألمانيا. والعمل في الوقت ذاته على ازعاجها باثارة

الشغب والاضطراب فيما بين شعوبها. وتحريض ملوك ألمانيا سراً عليها.

أحد عشر: يقتضي الاجتهاد في حمل النمسا على الموافقة على امتلاكنا القسطنطينية، واذا لم يتم ذلك، فبحملنا اياهم على عدم الاشتراك في حروب اوروبية، اذا قدر ونشبت الحرب بين ممالك اوروبا، والا فإننا نحمل دولة أوروبية على محاربتها، أو أننا نتخلى لها عن بعض فتوحاتنا، ونسترجعه في القريب من الزمن.

اثني عشر: يجب على روسيا أن تأخذ اليونان في كل مكان تحت حمايتها. فيكونون لنا أصدقاء بين الاعداء.

ثلاث عشر: بعد أن تضم روسيا اليها بلاد أسوج - السويد- وبولندا- بولونيا- وتركيا وبلاد فارس، يجب عليها أن تتصل بفرنسا والنمسا لحملهما على مشاركتها في السيادة على العالم. واذا امتنعتا، فعلى روسيا أن توجد أسباباً لمحاربتهما، فتصبح سيدة الشرق والقسم الأكثر أهمية من أوروبا.

أربع عشر: اذا رفضت فرنسا والنمسا مشاركتنا في اقتسام العالم، فعلينا تحريض احداهما ضد الاخرى. وعندما يحتدم القتال بينهما، تنتهز روسيا الفرصة، فتهاجم ألمانيا وفرنسا معاً. فاذا تم انتصارها عليهما، تخضع البقية بدون أدنى مقاومة(*)

(*) تاريخ روسيا (الخوري باسيليوس خرباوي) ص ٢١٤- ٢١٧.

المصـادر الرئيسيـة للبحـث

١ـ تاريخ روسيا (الخوري باسيليوس خرباوي) كاهن كنيسة القديس نقولاوس السورية الارثوذكسية في بروكلن ـ نيويورك ـ اصدار: مطبعة جريدة مرآة العرب في نيويورك ـ ١٩١١.
٢ـ تاريخ بطرس الكبير (نخله قلفاط) طبع في بيروت ـ بالمطبعة اللبنانية ـ سنة ١٨٨٦.
٣ـ بطرس الاكبر وولده ـ ترجمة دار الهلال ـ مطبعة الهلال بالفجالة ـ مصر ـ ١٩١٧.
٤ـ تاريخ فن الحرب ـ الجنرال ستروكوف ـ الجزء الأول ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الاتاسي ـ دمشق ـ الطبعة الاولى ـ ١٩٦٨.
٥ـ رواد الاستراتيجية الحديثة ـ ادوارد ميد ايرل وآخرين ـ ترجمة وتقديم الاميرالاي اركان الحرب محمد عبد الفتاح ابراهيم ـ مكتبة النهضة المصرية.
5–THE SOVIET UNION (GEORGES JORRE.)LONGMANS – 1952
6–THE DE CISIVE BATTLES OF THE WESTERN WORLD. (J.F.C. FULLER) PALADIN 1975.

الفهرست



لقد عرف القرن السابع عشر مجموعة من الرجال قلما يجود الزمان بأمثالهم ، وكان بطرس الأكبر ، قيصر روسيا ، أول رجال ذلك القرن .

وكان القرن السابع عشر قرن التحولات والصراعات ، وبالرغم من شدة الفارق بين تلك الصراعات ، والصراعات التي شهدها القرن العشرون ، إلا أنه من المستحيل فصل العوامل التي أدت إلى هذه التحولات والصراعات عن تلك العوامل التي أدت إلى الحروب العالمية اللاحقة ، من هنا تبرز أهمية التعرض لتلك الحقبة التاريخية من خلال ما قامت به الشخصيات التاريخية في القرن السابع عشر من أعمال وما حققته من انجازات امتدت ظلالها على صفحة الزمن أكثر من أربعة قرون .

لقد كانت حياة بطرس نموذجاً لسيرة الإرادة الذاتية وقصة للعمل الصادق المخلص ، ورغم أنه مات ولّما يتجاوز الثالثة والخمسين إلا انه كان له في كل يوم مأثرة أو إنجاز لا مثيل له .

لقد عاش بطرس الأكبر حياته لأمته فكان مثالاً للتفاعل المستمر بين حياة الفرد والأمة ، من هنا كان نموذجاً لقصة (الأمة في رجل والرجل في أمة) .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً "موكيالي" بيروت - ص . ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت